نزاع اليهود والنصارى حول موضوع الجنة ونسبة الولد لله تعالى عن ذلك

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾ البقرة: ١١١ - ١١٧.

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ

﴿ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلاَّ من كان على ملتها فأكذبهم الله تعالى كما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلاَّ أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ثم قال: ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ اي : حجتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أي: فيما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ آل عمران: ٢٠ .

وقال سعيد بن جبير: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أخلص، ﴿ وَجْهَهُۥ ﴾ قال: دينه، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: اتبع فيه الرسول (ص). فإن للعمل المتقبل شرطين:أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقا للشريعة. فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله (ص): ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))، فعمل الرهبان ومن شابههم - وإنْ فرض أنهم مخلصون فيه لله- فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول (ص) المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾الفرقان: ٢٣ ، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾النور: ٣٩، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، وروي عن الخليفة عمر (رض) أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، وأما إنْ كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال

المرائين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾النساء: ١٤٢، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾الماعون: ٤- ٧ ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾الكهف: ١١٠ . وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة: ١١٢ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه،﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم. كما قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس :لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله (ص)، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله (ص)، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: إنْ كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه، وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد بالفاسد.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ يُبيِّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾. وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال السدي: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فهم: العرب، قالوا: ليس محمد على شيء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذا كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾الحج: ١٧ ، وكما قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾سبأ: ٢٦ .

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ ﴾.

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوا في خرابها على قولين: أحدهما: هم النصاري، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه.

وقال قتادة : أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس.

وقال السدي: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا

يحيى بن زكريا.

القول الثاني: ما رواه ابن جرير:عن ابن زيد في قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله (ص) يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طُوَى وهادنهم، وقال لهم: (ما كان أحد يَصُد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده) فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ عن ابن عباس: أن قُرَيشًا منعوا النبي (ص) الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾، ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.(قلت): والذي يظهر -والله أعلم-القول الثاني: كما قاله ابن زيد فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول (ص) وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشا لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله (ص) وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾الأنفال: ٣٤ .

وقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾الفتح: ٢٥ ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرْتم عليهم-من دخولها إلاَّ تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسولُ الله (ص) مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: ((ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته)). وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلاَّ خائفين على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً

أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلاَّ ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم، وقيل: إنْ هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلاَّ خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إنْ لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله (ص) أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلاَّ تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيرًا (صلوات الله وسلامه عليه). وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا منها ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله، وأما من فَسَّر بيت المقدس، فقال (كعب الأحبار): إنَّ النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمداً (ص) أنزل عليه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلاَّ خائفاً، وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلاَّ مسارقة.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وهذا -والله أعلم-فيه تسلية للرسول (ص) وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلاهم، وقد كان رسول الله (ص) يصلي بمكةَ إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه، فلما قدم المدينة وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدُ، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾.

عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول (ص) لما هاجر إلى المدينة -وكان أهلُها اليهودَ-أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله (ص) بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله (ص) يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله:﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾البقرة: ١٤٤ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا:﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾البقرة: ١٤٢؟ فأنزل الله:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾البقرة: ١٤٢ وقال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا. وقال مجاهد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة، وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه (ص) وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾المجادلة: ٧ قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فَرَضَ عليهم التوجُّهَ إلى المسجد الحرام هكذا قال، وفي قوله: وإنه تعالى لا يخلو منه مكان: إِنْ أراد علمه تعالى فصحيح؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله(ص) إذنا من الله أن يصلي (التطوع) حيث توجه من شرق أو غرب، في سفره لما عن ابن عمر: أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله (ص) كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عُمِّيتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شَطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله لي المشارق والمغارب فأين وليتم

وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية، لما روي عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنا مع رسول الله (ص) في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلا فجعل الرَّجل يأخذُ الأحجارَ فيعمل مسجداً يصلي فيه. فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ الآية.

عن ابن عباس أن رسولُ الله (ص) بعث سَرِيَّة فاخذتهم ضبابة فلم يهتدوا الى القبلة فصلوا لغير القبلة ، فلما جاءوا الى رسول الله (ص) حدثوه فانزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم. قال مجاهد: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، ومعنى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله:﴿ عَلِيمٌ ﴾ فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى (عليهم لعائن الله)، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً. فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومُقَدِّرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء،

والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٗۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾الأنعام: ١٠١ وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾مريم: ٨٨ - ٨٩ ، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤ ﴾الإخلاص: ١ - ٤ .

فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخاري عن ابن عباس، عن النبي (ص) قال: (قال الله تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً).

وقوله: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ مُقرُّون له بالعبودية.وقال السدي: اي مطيعون يوم القيامة، وقال مجاهد: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول -وهو اختيار ابن جرير-يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعي وقَدري، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾الرعد: ١٥.

وقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾. أي: خالقهما على غير مثال سبق وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة. كما جاء في الصحيح لمسلم: (فإن كل محدثة بدعة)، والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: (فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)، وتارة تكون بدعة لغوية كقول الخليفة عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم(نعْمَتْ البدعةُ هذه). وقال ابن جرير:﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.: مبدعهما، وإنما هو (مُفْعِل) فصرف إلى فَعيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم، ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم

يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد. قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحان الله أن يكون له ولد، وهو مالك ما في السماوات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوَحْدانيّة، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك (المسيح) الذي أضافوا إلى الله بُنُوَّته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته، وهذا من ابن جرير، رحمه الله، كلام جيد وعبارة صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمرًا وأراد كونه، فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ أي: مرة واحدة ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ النحل: ٤٠، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ القمر: ٥٠ .

وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنَّما يقول له كن قولة فيكونُ

ـ الشيخ مغنية:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

اللغة: هود جمع، ومفرده المذكر هائد، والمؤنث هائدة، ومعنى الهائد التائب الراجع إلى الحق، ونصارى جمع، ومفرده نصران، ولكنه لا يستعمل إلا مع ياء النسبة، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٦٢، والأماني جمع، وأحدها أمنية من التمني، وإسلام الوجه لله الإخلاص له في العمل، والقيامة مصدر مثل القيام، ولكن هذه الكلمة كثر استعمالها في يوم البعث، حتى صارت علماً عليه.

الإعراب: ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عطف على ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ والضمير في قالوا عائد على كثير، وكل من الجنة وجهنم ظرف مكان، و(من) اسم موصول، وهي هنا بمعنى الذين، وأفرد ضمير كان بالنظر إلى اللفظ، لا إلى المعنى، وجمع عليهم بالنظر إلى المعنى لا إلى اللفظ.

وتلك اسم إشارة يشار بها إلى المفردة المؤنثة، وإلى جمع التكسير، وهي مبتدأ، وأمانيهم خبر، والجملة لا محل لها من الإعراب، لأنها معترضة بين (قالوا) وبين هاتوا. وهو محسن جملة حالية، وكذلك جملة وهم يتلون الكتاب، و(مثل) قائم مقام المفعول المطلق، أي قالوا أقوالاً مثل قولهم.

المعنى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾. قال صاحب مجمع البيان: «هذا إيجاز، وتقدير الكلام قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً.. وإنما قلنا: إن الكلام مقدر هذا التقدير، لأن من المعلوم أن اليهود لا يشهدون للنصارى بالجنة، ولا النصارى يشهدون بذلك لليهود، فعلمنا أنه أدرج الخبر عنهما للإيجاز من غير إخلال شيء من المعنى، فإن شهرة الحال تغني عن البيان المفصل».

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ جمع الأماني، لأنها كثيرة، منها أمنيتهم أن يرجع المسلمون كفاراً، ومنها أن يعاقَب أعداؤهم، ومنها أن الجنة لهم وحدهم.

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ كل دعوى تحتاج إلى دليل، وأيضاً كل دليل نظري يحتاج إلى دليل، حتى ينتهي إلى أصل عام ثبت بالبديهة

والوجدان، ومعنى ثبوته كذلك أن يتفق على صحته جميع العقلاء، ولا يختلف فيه اثنان، تماماً كهذا الأصل: «كل دعوى تحتاج إلى دليل».. اللهم إلا إذا كانت الدعوى بديهية على أن الدعوى البديهية لا يسمى القائل بها مدعياً، لأن الدعوى مأخوذ في مفهومها الافتقار إلى الدليل، أما القضية الواضحة بذاتها فدليلها معها، وملازم لها لا ينفك عنها بحال، وإلا لم تكن بديهية.. واختصاراً لا يسوغ أن يقول: أين الدليل لمن قال: العشرة أكثر من الواحد ـ مثلاً ـ ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾. هذا تكذيب لدعواهم بأن الجنة لهم وحدهم دون الناس أجمعين، والمراد بالوجه في الآية النفس والذات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ والمعنى أن كل من آمن بالله مخلصاً له في أعماله إخلاصاً لا يشوبه شرك ولا رياء فهو من المكرمين عند الله، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، أما قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فإشارة إلى أن التقرب إلى الله إنما يكون بالعمل الصالح، لأن الله سبحانه لا يطاع من حيث يعصى.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾. قال صاحب مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس أن نصارى نجران تنازعوا مع اليهود عند رسول الله (ص)، فقال رجل من اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، فأجابه رجل من النصارى: ليست اليهود على شيء فنزلت هذه الآية، تسجّل قول كل من الفريقين في حق الآخر.

﴿ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ المراد بالذين لا يعلمون في هذه الآية مشركو العرب، حيث قالوا تماماً كما قال اليهود والنصارى: إنهم وحدهم يدخلون الجنة دون المسلمين والناس أجمعين.

وأجاب القرآن أولاً: ما أجاب به اليهود والنصارى من أن الحق لا يتقيد بالأشخاص ولا بالأسماء والألقاب، وأن دخول الجنة منوط بالإيمان والعمل الصالح. ثانياً: إن الله سبحانه يعلم المحق من المبطل، وإنه سيجزي كلاً بأعماله. ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ البقرة: ١١٤

الإعراب: اتفقوا على أن المصدر المنسبك من أنْ والفعل الذي دخلت عليه محله النصب ثم اختلفوا في إعرابه على أربعة أقوال ذكرها الرازي وأبو حيان الأندلسي، وأظهرها ـ كما نرى ـ أن المصدر منصوب بنزع الخافض، والتقدير منع من ذكر ا لله فيها، كما تقول منعه من كذا، وخائفين حال من الواو في يدخلوها.

المعنى: هذه الآية من الآيات التي تعددت الأقوال في تفسيرها، وظاهرها يدل على التهديد والوعيد لمن لا يحترم المساجد، أو مطلق المعابد، ويمنع من عمارتها، أو من التعبد فيها لله، أو يعمل على هدمها، أو إهمالها، أو تعطيل الشعائر الدينية فيها.. وإن الواجب الإلهي والإنساني يفرض على كل إنسان أن يقدس المعابد، ويدخلها معظماً لها، وخاشعاً لجلالها، وخائفاً من عقاب الله راجياً لثوابه، لا مستهتراً ومستخفاً، لأنها أنشئت لهذه الغاية، ثم بيّن سبحانه أن من تعرض بسوء للمعابد فإن الله سبحانه يهينه ويذله في هذه الحياة. ويعذبه غداً بعذابه الأكبر.

وبالاختصار إن الآية بحسب ظاهرها مجرد بيان أن من يفعل كذا يفعل الله به كذا وعليه فهي قضية كلية لا تستدعي وجود واقعة خاصة قد حدثت في الماضي، أو في زمن الخطاب، أو منتظرة الحدوث...

ولكن المفسرين قالوا: إنها إشارة إلى حادثة خاصة، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل الحادثة المشار إليها قد وقعت قبل بعثة محمد (ص)، أو بعد البعثة؟ ثم إن الفريق الذين قالوا: إنها إخبار عن شيء وقع قبل البعثة اختلفوا فيما بينهم أيضاً في تعيين ذاك الشيء الذي وقع فمنهم من قال: إن الآية تخبر عما وقع من تيطس الروماني، إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة، وضربها، حتى لم يبق حجراً على حجر، وهدم هيكل سليمان، وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، وقيل، إن تيطس خرب بيت المقدس بتحريض المسيحيين انتقاماً

من اليهود.

هذا ملخص ما قاله المفسرون.. ونحن لا نعتمد شيئاً منها، حيث لا دليل من العقل أو النقل تطمئن إليه النفس، ونعتمد الظاهر من الآية التي لا يتنافى مع العقل، ولا دليل يصرفه إلى غيره من النقل، وهو وجوب احترام المعابد، وتحريم التعرض لها، ومجازاة من يقصدها بسوء.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

اللغة: الشرق والمشرق معناهما واحد، وهو مطلع الشمس والقمر، والغرب والمغرب والمغيب بمعنى واحد أيضاً، وهو موضع الغروب، وخصّ الله الشرق والغرب بالذكر دون الجنوب والشمال، لأن الشرق والغرب يشملان الجميع، إذ ما من مكان إلا وتشرق الشمس والقمر عليه، أو يغيبان عنه، ومن هنا كان تقسيم الكرة الأرضية إلى الشرق والغرب فقط، لا إليهما وإلى الجنوب والشمال. وثم في الآية بمعنى هناك. والقنوت معناه الدوام، ثم استعمل بمعنى الطاعة والانقياد، وهذا المعنى هو المراد هنا.

المعنى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي أن الأرض والجهات والأشياء كلها لله، فأينما تعبدتم، وأنّى اتجهتم قاصدين بالعبادة وجه الله فالله يتقبل منكم، فمن مُنع من العبادة في المساجد، فليتعبد حيث شاء، ويتجه إلى أية جهة أراد، فإن الأرض كلها مسجد، والجهات كلها قبلة، وقال بعض المفسرين: إن التعميم في الآية للجهة فقط دون المكان، لقوله سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾..

وقد ذهل هذا المفسّر عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ معلّلاً به تعميم الجهة.. ومن المعلوم أن تعميم علة الحكم تستدعي تعميم الحكم بداهة تبعية المعلول لعلته، والمسبب لسببه، وبكلمة ما دامت الجهات والأماكن كلها لله

فيصح التعبّد له في كل مكان، والاتجاه بالعبادة إلى جميع الجهات.

وبهذا يتبيّن الخطأ والاشتباه في قول من قال: إن قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٤٤ ناسخ لقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، لأن من شروط النسخ التنافي والتعارض بين الناسخ والمنسوخ، بحيث يرد الإثبات والنفي على موضوع واحد، وقد عرفت أن موضوع فولّ وجهك شطر المسجد خصوص صلاة الفريضة والنافلة مع الاستقرار وأن موضوع أينما تولوا فثمّ وجه الله ـ ما عدا ذلك.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قدمنا في تفسير الآية ١١٣ أن كلاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب قالوا: إنهم وحدهم على حق، وغيرهم ليس بشيء، أو ليس على شيء، وعليه يكون الضمير في قوله تعالى: «وقالوا» راجعاً إلى هذه الطوائف الثلاث، وقد جاء في القرآن الكريم أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وإن النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وأن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله، فلا جرم صحّت هذه الحكاية عنهم جميعاً.

(سبحانه) كلمة تنزيه، وفي آية ثانية: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ النساء: ١٧١ لأن وجود الولد لله تعالى يستلزم العديد من المحاذير: "منها": إن التي تلد منه لا بد أن تكون من جنسه، ليمكن الاستيلاد، والله لا جنس له ولا ندّ.

و"منها": أن الولادة تستدعي المقاربة، والمقاربة تستدعي الجسمية، والله ليس بجسم.

﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ الروم: ٢٦ أي مطيعون منقادون.

وتسأل: إن (ما) تستعمل في ما لا يعقل، و(قانتون) تستعمل فيمن يعقل، لأنه جمع بالواو والنون، والمراد بـ(ما) هو عين المراد بـ(قانتون) فكيف صح التعبير عن الشيء الواحد بما لا يعقل تارة، وبمن يعقل أخرى؟

الجواب: إن الأرض والسموات تشتمل على من يعقل، وما لا يعقل، وقد تضمّنت الآية جملتين: إحداهما أثبتت ملك الله لما حوته الأرض والسموات، والثانية أثبتت

طاعته لله.. وحين أراد الله سبحانه التعبير عن الملك غلب ما لا يعقل، لأن الملك يتعلق به، وحين أراد الطاعة غلب من يعقل، لأنها لا تصدر إلا عن عقل واختيار.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ المبدع هو المخترع والمبتكر الذي لم يأخذ من غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا ﴾الحديد: ٢٧، وعليه يكون المعنى: إذا كان الله هو منشئ السموات والأرض ومبدعها فكيف ينسب إليه شيء مما فيهما على أنه ولد له؟

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ هذا كناية عن عظمة الله وقدرته، وإنه بمجرد أن يريد يتحقق المراد، سواء لم يكن شيء فيوجد بإرادته من لا شيء، أو كان شيئاً، وأراد تحويله إلى شيء آخر، فيتحول.. وذكرنا في تفسير الآية ٢٦ ـ ٢٧ أن لله إرادتين: إرادة التكوين، وإرادة التشريع، فراجع إن شئت.. ومن إرادة التكوين قوله تعالى في الآية ٥٩ سورة آل عمران:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾آل عمران: ٥٩.

ـ السيد قطب:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

الذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود، إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود، ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء ثم يحببه هؤلاء بهؤلاء! ويحكي راي المشركين في الطائفتين جميعاً!

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾

وهذه حكاية قولهم مزدوجة وإلاّ فقد كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً وكانت النصارى تقول: لن يدخل الجنة إلاّ من كان من النصارى.

وهذه المقولة كتلك لا تستند إلى دليل، سوى الإدعاء العريض! ومن ثم يلقن الله رسوله(ص) أن يحببهم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل.

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

وهنا يقرّر قاعدة من قواعد التطوّر الإسلامي في ترتيب الجزاء على لاعمل بلا مُحاباة لأمّة ولا لطائفة ولا لفرد، إنّما هو الإسلام والإحسان لا الاسم والعنوان.

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة طرفيها المتقابلين: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾البقرة: ٨١. فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلاّ وجهة الخطيئة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فأخلص ذاته كلّها لله، ووجه مشاعره كلّها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه والوجه رمز على الكلّ ولفظ أسلم يعني الإستسلام والتسليم الاستسلام المعنوي والتسليم العملي، ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام، فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والأحسان العملي. كذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلّها وبذلك تتوحّد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله.

﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾الأجر المضمون لا يضيع عند ربّهم.. وإلاّ من الموفور لا يساوره خوف والسرور الفائض لا يمسّه حُزن.. وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً فلا محسوبية عند الله

سبحانه وتعالى ولا محاباة!

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب، وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة من التقاذف بالإتهام، ومن التمسّك بالخرافات والأساطير لا ترتفع كثيراً على خرافات العرب وأساطيرهم في الشّرك ونسبة الأبناء أو البنات لله سبحانه وتعالى، فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنّهم ليسوا على شيء! والقرآن يُسجّل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض، عقب تفنيد اليهود والنصارى في ملكية الجنة ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله.

﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

فهو الحكم العدل، وإليه تصير الأمور، وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق، ولا يعتمدون على دليل، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة وأنهم وحدهم المهديون.

ويتابع: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة، سعي اليهود لصد المسلمين عن التوجّه إلى الكعبة، أول بيت وضع للناس وأول قبلة. وهناك روايات متعدّدة عن أسباب نزولهما غير هذا وعلى أية حال، فإنّ إطلاق النص يوحي بأنّه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها كذلك الحكم الذي يُرتبه على هذه الفعلة، ويقرّر أنه هو وحده الذي يَليق أن يكون جزاء لفاعليها وهو قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾

أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلاّ أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمها مستأمنين [كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله (ص) يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله (ص) ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام].

﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

وهناك تفسير آخر لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلاّ في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلاله العظيم.. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام.

والذي يجعلنا نرجّح أن الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة، هو الآية الثانية منها: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أن صلاة المسلمين إلى بيت المقدس كانت باطلة، وضائعة ولا حساب لها عند الله والآية تردّ عليهم هذا الزعم، وهي تقرّر أن كل اتجاه قبله. فثم وجه الله حيثما يتوجّه إليه عابد، وإنّما تخصيص قبلة مُعينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أن وجه الله في جهة دون جهة والله لا يضيّق على عباده، ولا ينقصهم ثوابهم، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم. وفي الأمر سعة والنية لله.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

وهذه المقولة الفاسدة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ ليست مقولة النصارى وحدَهم في المسيح، فهي كذلك مقولة اليهود في عزير كما كانت مقولة المُشركين في الملائكة ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات لأن السياق إجمال للفرق الثلاثة التي

كانت تناهض الإسلام في الجزيرة العربية.

ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماماً، ممثلة في الصهيونية العالمية الصليبية العالمية وهي أشدّ كفراً من المشركين في ذلك الحين! ومن هذا الادماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون وها هم أولاء يستوون مع المشركين.

وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصوّرهم لشأن الله يبادر بتنزيه الله عن هذا التصوّر وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً.

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

هنا يصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصوّر عن هذه الحقائق جميعاً.. لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجّه الإرادة المُطلقة القادرة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن، على الصورة المُقدرة له بدون وسيط من قوة أو مادة. أمّا كيف تتصّل هذه الإرادة التي لا نعرف كُنهها، بذلك الكائن المراد ضرورة عنها، فذلك هو السرّ الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها؛ وهي خلافة الأرض وعمارتها.. وبقدر ما وهب الله للإنسان القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخّر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى، ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار، وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال. ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد، فتجيء هذه الفروض مُضحكة في أرفع مستوياتها، إلى حدّ يحيّر الإنسان فلما أن أراد بعض متفلسفيهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغراقية

(على وجه الخصوص) أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى باؤوا بالتعقيد والتخليط. كما باء أساتذتهم الإغريق وأدخلوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعة وفي التصوّر الإسلامي ما ليس من حقيقته، وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، فوق طبعة خلقته وتكوينه.

النظرية الإسلامية أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء.. ومن هنا تنتفي من التصوّر الإسلامي فكرة «وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح، أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة، وأن الوجود وإشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرتبة لموجوده أو على أي نحو من أنحاء التصوّر على هذا الأساس والوجود وحدة في نظرة المسلم على معنى آخر وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه اتجاهه إلى ربه من عبادة وخشوع.

﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

فلا ضرورة لتصوّر أن له من بين ما في السماوات والأرض ولداً فالكل من خلقه بدرجة واحدة، بأداة واحدة.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

وتوجه الإرادة يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشري، لأنها فوق طاقة الإدراك فمن العبث إنفاق الطاقة من اكتناه هذا السر والخبط في التيه بلا دليل.

ـ السيد فضل الله:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ

﴿ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

معاني المفردات:

﴿ هُودًا ﴾ جمع مفرده المذكّر هائد والمؤنث هائدة، ومعنى الهائد: التائب الراجع إلى الحق.

﴿ أَمَانِيُّهُمْ ﴾: الأماني جمع واحدها أُمنية من التمني.

﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾: أخلص له في العمل.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾

هنا القرآن الكريم يواجه الأوهام بتعليق ساخر مُهذّب، فلكل إنسان مُطلق الحرية في تمنّي ما يشاء لنفسه، فإن مساحة لأماني الذاتية واسعة كسعة الخيال، فإذا كانت كلماتهم هذه من وحي التمنيات، فلتكن لهم حريتهم في إطلاقها كما يريدون، وإذا كانت من وحي العقيدة التي تحدد للإنسان مصيره الذي يبني عليه حياته، فلتكن المواجهة من باب النصيحة والتحدّي.

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ بتقديم الأُسّس العقيدية التي تحدّد للإنسان قضية المصير في الآخرة من الجنّة والنار.

﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في هذه الدعوة، لأنّ الصِدق يتطلّب الإثبات الذي ترتكز عليه القناعة العقلية والوجدانية، وهذا ما يفقده هؤلاء في ما يملكونه من وسائل الإقناع والإثبات.

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ وهنا يشير ويخاطب أصحاب الأماني بأنّكم لستم أهل الجنة، لكن أهلها الآمنون يوم القيامة هم الذين يُسلمون وجهوههم لله في الفكر والعقيدة والعبادة فلا ينطلقون في فكر أو عقيدة إلا إذا كان ينسجم مع الحقيقة المنسابة من وحي الله، ولا يدخلون في عبادة إلا من خلال تجسيدها للمعنى الحقّ لعبودية الإنسان لله فلا يشركون بعبادته غيره ولا يعبدون سواه.

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وهم الذين لا يعيشون هذا الإسلام في حياتهم الداخلية

فحسب، ليتجمد في لحظات التأمل والفكر والخشوع الروحي المُنساب في أجواء صوفية غامضة حالمة، بل يتحوّل في حياتهم العملية إحساناً للحياة وللآخرين في كل ما يستطيعون أن يقدّموه من أعمال وخدمات، وفي كل ما يملكون تفجيره من طاقات، فلا يعيشون الأنانية في قواهم التي يملكونها ولا في فكرهم الذي يعيشونه، بل يعتبرونها ملكاً لهم وللحياة والإنسان، لأنها هبة الله ونعمته الملتزمة بحدود المسؤولية، فلا بد من أن تتصاعد في حياتهم صلوات عملية خاشعة في رحاب الله.

﴿ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ بما قدّموه من عمل، وبما عاشوه من إيمان لأن الإنسان الذي يُسلم وجهه لله في كل توجهاته في الحياة، وفي تطلعاته المستقبلية وفي كل علاقاته الإنسانية، يرتبط بالله بأوثق الروابط، ويرتفع إليه بأعلى درجات القُرب، ممّا يجعله محبوباً من الله قريباً إليه، مرضياً عنده، وهذا ما يشكّل الأساس لكي لا يخاف الإنسان من أي شيء ممّا يخافه الناس عادة، فالمتقّون في حِرز من الخوف في الدنيا والآخرة معاً، كما أن الحزن لا معنى له في وعي الإنسان الذي تتجمّع في روحه كل عناصر السرور والفرح الروحي انطلاقاً من حصوله على رضوان الله الذي هو مصدر كل سعادة من خلال خوفه من الله وحده دون سواه فيحصلوا من خلال ذلك على محبته ورضاه ونعيمه، ولعل التعبير بعبارة ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ بدلاً من لا يخافون، للإيحاء بأنّ الخوف لا وجود له في ذاته بعيداً عن الجانب الذاتي للشخص، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣ .

ـ فهل يملك هؤلاء الذين يحتكرون لأنفسهم الجنّة مثل هذه الركائز الفكرية والعملية، أم ماذا؟ إن القرآن يوحي للإنسان بكل ما تحمله كلمة «ماذا» من استفهام إنكاري يبحث عمّا يُطرح عليهم فلا يجد له جواباً إلاّ الصمت المُشبع بالشعور العميق بالذنب في أعماق المجرمين.

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ فهم لا يؤمنون بالسيد المسيح

ورسالته، ولا يرون أن الإنجيل كتاب الله الذي ترتكز عليه النصرانية في شرعية معتقداتها، فهم بنظر اليهود مزيّفون، من خلال الإدعاء بأنّ عيسى (ع) ليس المسيح الموعود بل هو شخصية مزيفة، ولذلك فإنهم ليسوا على شيء من الدين الحق، وكان قولهم هذا، لأنهم (اليهود) ينكرون السيد المسيح (ع) ورسالته فلا ينفعهم إيمانهم بالتوراة وبموسى، لأنّ المؤمن الحق هو من يؤمن بالكتاب كلّه توراة وإنجيلاً، ممّا يجعلهم مثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، لتكون المسألة في طريقة تدينهم هي الخلط بين الإيمان والكفر.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي يجسّد الحقيقة في آياته، فيزيل الشك ويرفع الشبهة، ليكون الخط الفاصل بين الحق والباطل، فيمكن لهم أن يدخلوا الحوار من خلاله ويديروا الجدل حول تفسيره وتأويله ليعرفوا أن التوراة تبشّر بالسيد المسيح وبكتابه ورسالاته، وأن الإنجيل يتحدّث عن التوراة وعن النبي موسى (ع) ممّا يجعل الدينين منطلقين من قاعدة واحدة، فيما لو درسوها دراسةً دقيقةً واعية.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم المشركون الذين انطلق شركهم من موقع جهلهم.

﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ في احتكارهم الحق لأنفسهم وإبطالهم قول النبي (ص) بأنّه ليس على شيء بل هو ساحر أو كاهن أو شاعر، أو نحو ذلك من الاتهامات التي وجهت إليه فأنكرت رسالته ووجّهت إلى القرآن فأنكرت نزوله من عند الله كوحي يوحى وقالوا عنه إنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفرقان: ٥ .

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويعرّفهم الحقيقة الحاسمة.

﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فقد يرى بعضهم (المشركين) أنهم ليسوا على شيء في المبدأ والتفاصيل، وقد يرى بعضهم (اليهود ـ النصارى) أنهم يملكون بعض الحقيقة بطريقة مختلفة، وأنهم ليسوا على الخط المستقيم في إنكارهم الإسلام وشرعيته.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

معاني المفردات:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾: الشرق والمشرق معناهما واحد، وهو مطلع الشمس والقمر، والغرب والمغرب والمغيب بمعنى واحد أيضاً وهو موضع الغروب.

﴿ تُوَلُّوا۟ ﴾: توجّهوا وجوهكم.

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾: تنزيهاً له، وحاشا له.

﴿ قَٰنِتُونَ ﴾: دائمو الطاعة والانقياد.

﴿ بَدِيعُ ﴾: خالق على غير مثال سبق، ومعنى المُبدع، المُنشئ والمُحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد.

- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾: إنّ أبشع أنواع الظلم هو الاعتداء على مساجد الله وعلى حرية المؤمنين فيها، وذلك بمنعهم من الصلاة والدعاء وذكر اسم الله.

﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾: مادياً بتهديمها أو معنوياً بالمنع من عمارتها بالعبادة، أمّا أنه أقوى أنواع الظلم، فلأنه يجمع بين الاعتداء على حرمة الله بالاعتداء على بيوته وإبطال دورها في العبادة، وبين الاعتداء على حُرمة الإنسان بالاعتداء على حريته في ممارسة شعائره وعبادته.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ وقد أراد الله للمسلمين أن يأخذوا بموقف القوّة ضدّ هذا الظلم والظالمين، فيمنعوهم من دخولها إلاّ كدخول الخائفين، وذلك على سبيل الكناية في تدمير قوتهم وإضعافهم، حتى يتحركوا في

المجتمع تحرّك الخائف الذي إذا أراد أن يدخل المسجد، فلا يدخله إلاّ خائفاً ثم يتوعدهم الله الذي يملك القوّة في الدنيا والآخرة بالخزي في الدنيا.

﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وذلك من خلال ما يصيبهم فيها من ضعف وهوان وذلّ بسبب تصرفاتهم الظالمة الباعثة ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

إن الآية تعبّر عن حقيقة توحيدية، وهي أنّه الله ليس جسماً ليوجد في مكان دون مكان كما توجد الأجسام، بل هو فوق المكان والزمان، مالك كل شيء وخالقه، فلا يختص به مكان أو جهة، فله المشرق والمغرب، فأينما وجهتم وجوهكم فإنّكم ستجدون الله أمامكم ماثلاً في خلقه من خلال دلالة الخلق على عظمة الخالق، فإنّ الله واسع في ملكه وقدرته، عليم بما في قلوبكم حيث تتوجّه في عبادتها وإخلاصها.

هذا هو الجو الذي توحيه الآية، ولكن ماذا خلفها، وماذا في مجالاتها من حدود؟

هل نزلت هذه الآية في توجه الإنسان إلى الصلاة، لتكون واردة في مورد تحديد القِبلة كما ينقل ابن عباس، فقد روي عنه أنها نزلت في اليهود الذين أنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أم أنها نزلت في صلاة التطوّع على الراحلة، كما روي عن أئمة أهل البيت (ع)، أم نزلت في حالات الجهل والتحيّر إذا صلى المصلون إلى جهة غير القبلة باعتقاد أنها القبلة كما روي عن جابر في قصة حدثت في زمن النبي (ص).

ـ ليس في الآية ما يدلّ على اختصاصها بحالة الصلاة أو صلاة معينة، ولكن جوّها يوحي بذلك وبأنّ هناك حديثاً دار بين المسلمين، فجاءت الآية لتضع القضية في نطاقها الطبيعي الذي يلغي أسّس الخلاف، فإذا كان الله قد أراد منّا التوجه إلى جهة من الجهات في وقت ما، فإن بإمكانه أن يوجهنا إلى جهة أخرى في وقت آخر، لأنّ الجهة الأولى لم يُشرّع باعتبارها مكاناً لله، بل لحكمة يعلمها الله في ذلك، فلا مانع من أن تكون هناك حكمة أخرى في جهة أخرى. أمّا قضية الاختصاص بصلاة معينة، فإنها تخضع للتدقيق في المقارنة بين الآيات والروايات التي عرضت لتشريع القبلة في

قضايا الإطلاق والتقييد.

وعليه يمكنّنا القول بأنّ الآية مُطلقة في جواز التوجّه إلى الله في أي مكان وفي كل مورد من الموارد التي يُشترط فيها التوجّه إليه، إلاّ ما دلّ الدليل على اختصاصه بجهة معينة كصلاة الفريضة مثلاً. فيبقى الباقي كصلاة التطوّع ونحوها في مجرى الإطلاق، وبهذا تُفسّر الروايات الواردة في اختصاصها بصلاة التطوع أو بحالة الشك. فالآية واردة في مقام التعبير عن حقيقة توحيدية عامة والتركيز على الانطلاق منها في مقام الالتزامات التشريعية العملية.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

وهنا معالجة ومُناقشة للفكرة الخاطئة التي سيطرت على تفكير اليهود والنصارى والمشركين عن علاقة الله ببعض مخلوقاته، فقد حكى لنا القرآن في آيات لاحقة أن اليهود يعتقدون أن عُزيراً ابن الله، وأنّ النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله كما حكى لنا عن المشركين أنهم يرون الملائكة بنات الله، ولعل السرّ في هذه العقائد هو استغراقهم في صفات العظمة لهذه المخلوقات، من خلال ما لاحظوه من قيامهم ببعض الأعمال التي قد لا يستطيعها غيرهم، أو ما اعتقدوه فيهم من قدرتهم على الأشياء التي لا يقدر عليها الآخرون، ممّا أوحى إليهم بأنهم يمتازون على المخلوقات الأخرى، لأن فيهم سراً ليس موجوداً فيها، ولولا اعتقادهم بوحدانية الله في الوجود، لخيّل إليهم أنهم شركاء الله في الألوهية ولكنّهم وضعوهم في مرتبة قريبة منه بالمستوى الذي يجعلهم أقرب من غيرهم، وهل هناك قرابة أقرب من علاقة الإنسان بأولاده؟

إذاً فلا بد أن يكون أبناء الله، ليكون ذلك مبرّراً لهذا الامتياز الذي منحهم إياه وهكذا انطلقت هذه العقيدة في تاريخ هذه الشعوب في تعقيد فكري لدى البعض، وفي سذاجة فكرية لدى البعض الآخر.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾: أي اليهود والنصارى وقد يشمل مُشركي العرب، أن الله اتخذ ولداً كما يتخّذ الإنسان ولداً ليأنس ويقوى به، فيمنحه الامتيازات الكبرى التي لا يمنحها لغيره، فتكون له القداسة التي قد تبلغ درجة الألوهية. وجاء القرآن ليناقش هذه العقيدة ببساطة، فبدأ الحديث بالتسبيح والتنزيه لله وذلك بكلمة ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ أي تنزيهاً له عن هذه العلاقات، لأنّها تعني الحاجة باعتبار أن النبوّة تُمثّل في وعي الآباء تلبية لرغبة ذاتية، كنتيجة للشعور بالفراغ الداخلي من هذه الجهة، كما تُمثّل الحاجة إلى المرور بمراحل زمنية وعملية في سبيل الوصول إلى هذه النتيجة لو أُريد للنسبة أن تتحقق بشكل طبيعي كما تتحقّق في سائر الأشياء، وهذا يعني العجز إلى جانب الحاجة ممّا يستحيل على الله ويتنزه عنه.

﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

مطيعون خاشعون، فلا يملُك أحدٌ منهم أي تفوّق ذاتي في نفسه، أو أية علاقة بالله تُميّزه عن العلاقة بالآخر من حيث طبيعة الخلق. فما حاجة الله إلى الولد، وهو مالك السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، ولكلّ من هذه المخلوقات خصائص وميزات، ولكنّها لا تخرج بذلك عن مملوكيتها ومخلوقيتها لله، من دون أن يكون أحد منها أقرب من الآخر من حيث جهة الملك أو الخلق، أو يكون انتسابها إلى الله بمستوى أعلى من الآخر.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ومُنشئها من خلال إرادته التي لا تتخلّف في كل شيء يريده من دون حاجة إلى توسط شيء بين الإرادة والمراد، فإذا أراد شيئاً خلقه.

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ قول الإرادة لا قول الكلمة على هدى ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين (ع): «فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك مُنزجرة».

وقد جاء المفسّرون ليناقشوا الوجه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وذلك من منطلق القاعدة الفلسفية التي تمنع من مخاطبة المعدوم، فكيف يخاطب الله الشيء قبل وجوده ليطلب منه أن يوجد؟! فقال

بعضهم: إنّه بمنزلة التمثيل، وقال بعض آخر: إنه رمز بين الله وبين الملائكة في الدلالة على أن هناك شيئاً جديداً قد خلق، وقال آخرون: إنّ المعدوم لما كان معلوماً عند الله صار كالموجود.

أما في معنى «كن فيكون» فقد يخيل إلى البعض أن المقصود هو أن الشيء يوجد فوراً إذا أراد الله وجوده، ولكن ذلك غير المراد، لأنّ بعض الأشياء قد تكون لها شروط توجب تأخيرها، ولذلك فإن المقصود هنا، أن مراد الله لا يختلف عن إرادته، فإذا أراد الله للإنسان أن يوجد بعد تسعة أشهر من الحمل، فهو الذي يتحقق لا وجوده كيفما كان.

. الطبري:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ وقالت اليهود والنصارى: ﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾.

فإن قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين؛ واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه. وإنّما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبر عنهما، فقيل: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾الآية أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصرانياً. وأمّا قوله: ﴿ مَن كَانَ هُودًا ﴾، فإن في «الهود» قولين: أحدهما أن يكون جمع «هائد»، كما جاء «عُوط» جمع «عائط»، و«عُوذ» جمع «عائذ»، و«حُول» جمع«حائل»، فيكون جمعاً للمذكر والمؤنث بلفظ

واحد. و»الهائد» التائب الراجع إلى الحق. والآخر أن يكون مصدراً عن الجميع، كما يقال: «رجل صَوم وقوم صوم»، و»رجل فِطر وقوم فطر، ونسوة فطر».

وأما قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قول الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، أنه أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يدعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه (ص) بدعاء الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ إلى أمر عدل بين جميع الفرق: مُسلمها ويهودها ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا: من أن الجنّة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. يقول الله لنبيه محمد (ص): يا محمد، قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: ﴿هاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، على ما تزعمون من ذلك، فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى محقين. والبرهان: هو البيان والحجة والبينة.

وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أنه ليس كما قال الزاعمون﴿لَن

﴿ يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾، ولكن من أسلم وجهه لله وهو محسن، فهو الذي يدخلها وينعم فيها.

وخص الله جل ثناؤه بالخبر عمّن أخبر عنه بقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، بإسلام وجهه له دون سائر جوارحه، لأن أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه، وهو أعظمها عليه حرمة وحقاً، فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له. ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبر عن الشيء، فتضيفه إلى «وجهه» وهي تعني بذلك نفس الشيء وعينه.

فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، إنما يعني: بلى من أسلم لله بدنه، فخضع له بالطاعة جسده، وهو محسن في إسلامه له جسده، فله أجره عند ربه. فاكتفى بذكر «الوجه» من ذكر «جسده» لدلالة الكلام على المعنى الذي أريد به بذكر «الوجه».

وأما قوله: ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾، فإنه يعني به: في حال إحسانه. وتأويل الكلام: بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له، مُحسناً في فعله ذلك.

قال أبو جعفر: يعنى بقوله جل ثناؤه: ﴿ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾، فللمسلم وجهه لله محسناً، جزاؤه وثوابه على إسلامه وطاعته ربه، عند الله في معاده.

ويعني بقوله: ﴿ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾، على المسلمين وجوههم لله وهم محسنون، المخلصين له الدين في الآخرة من عقابه وعذاب جحيمه، وما قدموا عليه من أعمالهم.

ويعني بقوله: ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا، ولا أن يمنعوا ما قدموا عليه من نعيم ما أعد الله لأهل طاعته.

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الكتابين تنازعوا عند رسول الله (ص)، فقال بعضهم لبعض.

كما حدّثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، وحدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير، قالا جميعاً حدثنا محمد بن إسحاق قال، حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال، لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله (ص)، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله (ص) فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾، إلى قوله: ﴿ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

وأما تأويل الآية، فإن قالت اليهود: ليست النصارى في دينها على صواب! وقالت النصارى: ليست اليهود في دينها على صواب! وإنما أخبر الله عنهم بقيلهم ذلك للمؤمنين، إعلاماً منه لهم بتضييع كل فريق منهم حكم الكتاب الذي يظهر الإقرار بصحته وبأنه من عند الله، وجحودهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه، لأن الإنجيل الذي تدين بصحته وحقيته النصارى، يحقق ما في التوراة من نبوة موسى (ع)، وما فرض الله على بني إسرائيل فيها من الفرائض، وأن التوراة التي تدين بصحتها وحقيقتها اليهود تحقق نبوة عيسى (عليه السلام)، وما جاء به من الله من الأحكام والفرائض. ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾، مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابه الذي يشهد على كذبه في قيله ذلك. فأخبر جل ثناؤه أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك، على علم منهم أنهم فيما قالوه مبطلون، وأتوا ما أتوا من كفرهم بما كفروا به على معرفة منهم بأنهم فيه ملحدون.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾

اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا﴾. فقال بعضهم بما:

عنى بذلك مشركي العرب، لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب فنُسبوا إلى الجهل، ونفي عنهم من أجل ذلك العلم.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر عن قوم وصفهم بالجهل، ونفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض مما أخبر الله عنهم أنهم قالوه في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾. وجائز أن يكونوا هم المشركين من العرب، وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل اليهود والنصارى. ولا أمة أولى أن يقال هي التي عنيت بذلك من أخرى، إذْ لم يكن في الآية دلالة على أي من أي، ولا خبر بذلك عن رسول الله (ص) ثبّتت حجته من جهة نقل الواحد العدل، ولا من جهة النقل المستفيض.

وإنما قصد الله جل ثناؤه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾، إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا من قيل الباطل، وافتراء الكذب على الله، وجحود نبوة الأنبياء والرُسل، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون، وعلى الله مفترون، مثل الذي قاله أهل الجهل بالله وكتبه ورُسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولاً ولا أوحى إليهم كتاباً.

وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئاً من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلاً به. لأن الله تعالى ذكره عظم توبيخ اليهود والنصارى بما وبّخهم به في قيلهم ما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من أجل أنهم أهل كتاب قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فالله يقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين القائل بعضهم لبعض: لستم على شيء من دينكم يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم فيتبين المُحق منهم من المُبطل، بإثابة المحق ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا. وأما «القيامة» فهي مصدر من قول القائل: «قمت قياماً وقيامة»، كما يقال: «عدت فلاناً عيادة» و«صنت هذا الأمر صيانة». وإنما عنى «بالقيامة» قيام الخلق من قبورهم لربهم. فمعنى «يوم القيامة»: يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

قد دلّلنا في ما مضى، على أن تأويل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وتأويل قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، وأي امرئ أشد تعدياً وجراءة على الله وخلافاً لأمره، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها؟ و«المساجد» جمع مسجد: وهو كل موضع عبد الله فيه. وقد بينا معنى السجود فيما مضى. فمعنى «المسجد»: الموضع الذي يسجد لله فيه، كما يقال للموضع الذي يجلس فيه: «المجلس»، وللموضع الذي ينزل فيه «منزل»، ثم يجمع : «منازل ومجالس» نظير مسجد ومساجد. وقد حكي سماعاً من بعض العرب «مساجد» في واحد المساجد، وذلك كالخطأ من قائله.

وأما قوله: ﴿أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾، فإن فيه وجهين من التأويل. أحدهما: أن يكون معناه: ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه، فتكون «أن» حينئذ نصبا من قول بعض أهل العربية بفقد الخافض، وتعلق الفعل بها. والوجه الآخر: أن يكون معناه: ومن أظلم ممّن منع أن يذكر اسم الله في مساجده، فتكون

«أن» حينئذ في موضع نصب، تكريراً على موضع المساجد ورداً عليه.

وأما قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، فإن معناه: ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وممن سعى في خراب مساجد الله. فسعى إذًا عطف على «منع».

فإن قال قائل: ومن الذي عنى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾؟ وأي المساجد هي؟ قيل: إن أهل التأويل في ذلك مختلفون، فقال بعضهم: الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى، والمسجد بيت المقدس.

وقال آخرون: هو بُخْتَنَصَّر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد: مسجد بيت المقدس.

وقال آخرون: بلى عنى الله عز وجل بهذه الآية مُشركي قريش، إذ منعوا رسول الله (ص) من المسجد الحرام.

وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال: عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ النصارى. وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده.

والدليل على صحة ما قلنا في ذلك، قيام الحجّة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، إلاّ أحد المسجدين، إما مسجد بيت المقدس، وإمّا المسجد الحرام. وإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوما أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله (ص) وأصحابه من الصلاة فيه صح وثبت أن الذين وصفهم الله عز وجل بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها. إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه

الذي يرضاه الله منهم. وأخرى، أن الآية التي قبل قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.

فإن ظن ظان أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك، إذْ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في توجيه قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ إلى أنه معني به مسجد بيت المقدس فقد أخطأ فيما ظن من ذلك. وذلك أن الله جل ذكره إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد. وإن كان قد دلّ بعموم قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾، أن كل مانع مُصلياً في مسجد لله، فرضاً كانت صلاته فيه أو تطوعاً، وكل ساع في إخرابه فهو من المعتدين الظالمين.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾

وهذا خبر من الله عز وجل عمّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أنه قد حرم عليهم دخول المساجد التي سعوا في تخريبها، ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها، ما داموا على مناصبة الحرب، إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهموها، كالذي:

حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾، وهم اليوم كذلك، لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلاّ نُهك ضرباً، وأبلغ إليه في العقوبة.

أو كما حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾، قال: نادى رسول الله (ص): «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال: فجعل المشركون يقولون: اللهم إنا منعنا أن ننزل».

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

أما قوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، فإنه يعني بالخزي: العار والشر والذلة إمّا القتل والسباء، وإما الذلة والصغار بأداء الجزية، كما:

حدّثنا الحسن قال، حدثنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

حدّثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدّي قوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أما خزيهم في الدنيا، فإنهم إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية وقتلهم. فذلك الخزي. وأمّا العذاب العظيم، فإنه عذاب جهنم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا. وتأويل الآية: لهم في الدنيا الذلّة والهوان والقتل والسبي على منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيهم في خرابها، ولهم على معصيتهم وكُفرهم بربهم وسعيهم في الأرض فساداً عذاب جهنم، وهو العذاب العظيم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، لله ملكهما وتدبيرهما، كما يقال: «لفلان هذه الدار»، يعني بها: أنها له، ملكاً. فذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، يعني أنهما له، ملكاً وخلقاً. و«المشرق» هو موضع شروق الشمس، وهو موضع طلوعها، كما يقال: لموضع طلوعها منه «مطلع» بكسر اللام، وكما بيّنا في معنى «المساجد» آنفا.

فإن قال: فكيف خص المشارق والمغارب بالخبر عنها أنها له في هذا الموضع، دون

سائر الأشياء غيرها؟ قيل: قد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله خص الله ذكر ذلك بما خصه به في هذا الموضع. ونحن مبينو الذي هو أولى بتأويل الآية بعد ذكرنا أقوالهم في ذلك. فقال بعضهم: خص الله جل ثناؤه ذلك بالخبر، من أجل أن اليهود كانت توجه في صلاتها وجوهها قبل بيت المقدس، وكان رسول الله (ص) يفعل ذلك مدة، ثم حولوا إلى الكعبة. فاستنكرت اليهود ذلك من فعل النبي (ص)، فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فقال الله تبارك وتعالى لهم: المشارق والمغارب كلها لي، أصرف وجوه عبادي كيف أشاء منها، فحيثما تُوَلوا فثم وجه الله.

وهو المروي عن المثنى قال، حدثنا أبو صالح قال، حدثني معاوية بن صالح، عن علي (ع)، عن ابن عباس قال، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله (ص) لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله عز وجل أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله (ص) بضعة عشر شهراً، فكان رسول الله (ص) يحب قبلة إبراهيم (عليه السلام)، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾البقرة: ١٤٤ إلى قوله: ﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ سورة البقرة: ١٤٤-١٥٠، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾البقرة: ١٤٢، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾البقرة: ١٤٢ ، وقال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض على نبيه (ص) وعلى المؤمنين به التوجه شطر المسجد الحرام. وإنّما أنزلها عليه معلما نبيه (عليه الصلاة والسلام) بذلك وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية، إلاّ كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية، لأن له المشارق والمغارب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال جل وعز: ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾المجادلة: ٧ قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم في التوجه شطر المسجد الحرام.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية على النبي (ص)، إذناً من الله عز وجل له أن يصلي

التطوّع حيث توجه وجهه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة، وفي شدّة الخوف، والتقاء الزحوف في الفرائض. وأعلمه أنه حيث وجه وجهه فهو هنالك، بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ﴾.

وقال آخرون بل نزلت هذه الآية في قوم عُمِّيت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب، فأنى وليتم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم معلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية.

والصواب من القول في ذلك: أن الله تعالى ذكره إنّما خص الخبر عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنّهما له ملكاً، وإن كان لا شيء إلا وهو له ملك إعلاماً منه عباده المؤمنين أن له ملكهما وملك ما بينهما من الخلق، وأن على جميعهم إذ كان له ملكهم طاعته فيما أمرهم ونهاهم، وفيما فرض عليهم من الفرائض، والتوجهِ نحو الوجه الذي وجهوا إليه، إذْ كان من حكم المماليك طاعة مالكهم. فأخرج الخبر عن المشرق والمغرب، والمراد به من بينهما من الخلق، على النحو الذي قد بيّنت من الاكتفاء بالخبر عن سبب الشيء من ذكره والخبر عنه، كما قيل: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾، وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية إذاً: ولله ملك الخلق الذي بين المشرق والمغرب يتعبدهم بما شاء، ويحكم فيهم ما يريد عليهم طاعته، فولوا وجوهكم أيها المؤمنون نحو وجهي، فإنكم أينما تولوا وجوهكم فهنالك وجهي.

فأما القول في هذه الآية ناسخة أم منسوخة، أم لا هي ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول إن يقال: إنها جاءت مجيء العموم، والمراد الخاص، وذلك أن قوله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، محتمل: أينما تولوا في حال سيركم في أسفاركم، في صلاتكم التطوع، وفي حال مسايفتكم عدوكم، في تطوعكم ومكتوبتكم، فثم وجه الله، كما قال ابن عمر والنخعي، ومن قال ذلك ممّن ذكرنا عنه آنفا.

ومحتمل: فأينما تولوا من أرض الله فتكونوا بها فثمّ قبلة الله التي توجهون وجوهكم إليها، لأن الكعبة مُمكّن لكم التوجه إليها منها.

ومحتمل: فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم.

فإذ كان قوله عز وجل: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، محتملا ما ذكرنا من الأوجه، لم يكن لأحد أن يزعم أنها ناسخة أو منسوخة إلاّ بحجة يجب التسليم لها. لأن الناسخ لا يكون إلا بمنسوخ، ولم تقم حجة يجب التسليم لها بأن قوله:﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، مَعْنِيٌّ به: فأينما توجهوا وجوهكم في صلاتكم فثم قبلتكم؛ ولا أنها نزلت بعد صلاة رسول الله (ص) وأصحابه نحو بيت المقدس، أمراً من الله عز وجل لهم بها أن يتوجهوا نحو الكعبة، فيجوز أن يقال: هي ناسخة الصلاة نحو بيت المقدس، إذ كان من أهل العلم من أصحاب رسول الله (ص) وأئمة التابعين، من ينكر أن تكون نزلت في ذلك المعنى، ولا خبر عن رسول الله (ص) ثابت بأنها نزلت فيه، وكان الاختلاف في أمرها موجوداً على ما وصفت. ولا هي إذ لم تكن ناسخة لما وصفنا قامت حجّتها بأنها منسوخة، إذ كانت محتملة ما وصفنا: بأن تكون جاءت بعموم، ومعناها: في حال دون حال إن كان عني بها التوجه في الصلاة، وفي كل حال إن كان عني بها الدعاء، وغير ذلك من المعاني التي ذكرنا.

واختلف في تأويل قوله: ﴿ فَثَمَّ ﴾ فقال بعضهم: تأويل ذلك: فثم قبلة الله، يعني بذلك: وجهه الذي وجههم إليه.

وقال آخرون: معنى قول الله عز وجل: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، فثم الله تبارك وتعالى.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، فثم تدركون بالتوجه إليه رضا الله الذي له الوجه الكريم.

وقال آخرون: عنى بالوجه ذا الوجه. وقال قائلو هذه المقالة: وجه الله صفة له.

فإن قال قائل: وما هذه الآية من التي قبلها؟ قيل: هي لها مواصلة. وإنّما معنى ذلك: ومن أظلم من النصارى الذين منعوا عباد الله مساجده أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها، ولله المشرق والمغرب، فأينما توجهوا وجوهكم فاذكروه، فإنّ وجهه هنالك، يسعكم فضله وأرضه وبلاده، ويعلم ما تعملون، ولا يمنعكم تخريب من

خرب مسجد بيت المقدس، ومنعهم من منعوا من ذكر الله فيه أن تذكروا الله حيث كنتم من أرض الله، تبتغون به وجهه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَٰسِعٌ ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير.

وأما قوله: ﴿ عَلِيمٌ ﴾، فإنه يعني أنه عليم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

وتأويل الآية: ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، وقالوا اتخذ الله ولداً، وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله؟ فقال الله جل ثناؤه مكذبا قيلهم ما قالوا من ذلك ومنتفياً مما نحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾، يعني بها: تنزيهاً وتبريئاً من أن يكون له ولد، وعلوا وارتفاعاً عن ذلك. وقد دلّلنا فيما مضى على معنى قول القائل: «سبحان الله»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً. ومعنى ذلك: وكيف يكون المسيح لله ولداً، وهو لا يخلو إمّا أن يكون في بعض هذه الأماكن، إمّا في السموات، وإمّا في الأرض، ولله ملك ما فيهما. ولو كان المسيح ابناً كما زعمتم، لم يكن كسائر ما في السموات والأرض من خلقه وعبيده، في ظهور آيات الصنعة فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: مطيعون.

وقال آخرون: معنى ذلك كل له مُقرّون بالعبودية.

وأولى معاني «القنوت» في قوله: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ ، الطاعة والإقرار لله عز

وجل بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله عز وجل، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها. وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن لله ولدا بقوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مُلكاً وخلقاً. ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها، وأن الله تعالى بارئها وصانعها. وإن جحد ذلك بعضهم، فألسنتهم مذعنة له بالطاعة، بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك، وأن المسيح أحدهم، فأنى يكون لله ولداً وهذه صفته؟ وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وِجْهتَه، أن قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة.

وهذا خبر من الله جل وعز عن أن المسيح الذي زعمت النصارى أنه ابن الله مُكذّبهم هو والسموات والأرض وما فيها، إمّا باللسان، وإما بالدلالة. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم، بطاعتهم إياه، وإقرارهم له بالعبودية، عقيب قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فدلّ ذلك على صحة ما قلنا.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

فمعنى الكلام: سبحان الله أنى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعاً بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها، وموجدها من غير أصل، ولا مثال احتذاها عليه؟ وهذا إعلام من الله جل ثناؤه عباده، أن مما يشهد له بذلك: المسيح، الذي أضافوا إلى الله جل ثناؤه بنوته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً﴾، وإذا أحكم أمرا وحتمه، وأصل كل «قضاء أمر» الإحكام، والفراغ منه. ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس: «القاضي»

بينهم، لفصله القضاء بين الخصوم، وقطعه الحكم بينهم وفراغه منه به. ومنه قيل للميت: «قد قضى»، يراد به قد فرغ من الدنيا وفصل منها.

وأما قوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فإنّه يعني بذلك: وإذا أحكم أمراً فحتّمه، فإنّما يقول لذلك الأمر «كن»، فيكون ذلك الأمر على ما أمره الله أن يكون وأراده. قال أبو جعفر: فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾؟ وفي أي حال يقول للأمر الذي يقضيه: ﴿ كُن ﴾؟ أفي حال عدمه، وتلك حال لا يجوز فيها أمره، إذْ كان محالاً أن يأمر إلا المأمور، فإذا لم يكن المأمور استحال الأمر، كما محالٌ الأمر من غير آمر، فكذلك محال الأمر من آمر إلا لمأمور. أم يقول له ذلك في حال وجوده؟ وتلك حال لا يجوز أمره فيها بالحدوث، لأنه حادث موجود، ولا يقال للموجود: «كن موجوداً» إلاّ بغير معنى الأمر بحدوث عينه؟ قيل: قد تنازع المتأولون في معنى ذلك، ونحن مخبرون بما قالوا فيه، والعلل التي اعتلّ بها كل فريق منهم لقوله في ذلك: قال بعضهم: ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أمره المحتوم على وجه القضاء لمن قضى عليه قضاء من خلقه الموجودين أنه إذا أمره بأمر نفذ فيه قضاؤه، ومضى فيه أمره، نظير أمره من أمر من بني إسرائيل بأن يكونوا قردة خاسئين، وهم موجودون في حال أمره إياهم بذلك، وحتم قضائه عليهم بما قضى فيهم، وكالذي خسف به وبداره الأرض، وما أشبه ذلك من أمره وقضائه فيمن كان موجوداً من خلقه في حال أمره المحتوم عليه. فوجه قائلو هذا القول قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، إلى الخصوص دون العموم

وقال آخرون: بل الآية عام ظاهرها، فليس لأحد أن يحيلها إلى باطن بغير حجة يجب التسليم لها. وقال: إن الله عالم بكل ما هو كائن قبل كونه. فلما كان ذلك كذلك، كانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة لعلمه بها قبل كونها، نظائر التي هي موجودة، فجاز أن يقول لها: «كوني»، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، لتصور جميعها له، ولعلمه بها في حال العدم.

وقال آخرون: بل الآية وإن كان ظاهرها ظاهرَ عمومٍ، فتأويلها الخصوص، لأن

الأمر غير جائز إلا لمأمور، على ما وصفت قبل.

قالوا: وإذ كان ذلك كذلك، فالآية تأويلها: وإذا قضى أمراً من إحياء ميت، أو إماتة حي، ونحو ذلك، فإنما يقول لحي: «كن ميتاً، أو لميت: كن حياً»، وما أشبه ذلك من الأمر.

وقال آخرون: بل ذلك من الله عز وجل خبر عن جميع ما ينشئه ويكونه، أنه إذا قضاه وخلقه وأنشأه، كان ووجد ولا قول هنالك عند قائلي هذه المقالة، إلا وجود المخلوق وحدوث المقضي. وقالوا: إنما قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، نظير قول القائل: «قال فلان برأسه» و«قال بيده»، إذا حرك رأسه، أو أومأ بيده ولم يقل شيئاً.

وأولى الأقوال بالصواب في قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، أن يقال: هو عام في كل ما قضاه الله وبرأه، لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم، وغير جائز إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل بغير برهان لما قد بينا في كتابنا: «كتاب البيان عن أصول الأحكام». وإذ كان ذلك كذلك، فأمر الله جل وعز لشيء إذا أراد تكوينه موجودا بقوله: ﴿ كُن ﴾ في حال إرادته إياه مكوَّناً، لا يتقدم وجود الذي أراد إيجاده وتكوينه، إرادته إياه، ولا أمره بالكون والوجود، ولا يتأخر عنه. فغير جائز أن يكون الشيء مأموراً بالوجود مراداً كذلك إلا وهو موجود، ولا أن يكون موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود مراد كذلك. ونظير قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ قوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾الروم: ٢٥ بأن خروج القوم من قبورهم لا يتقدم دعاء الله، ولا يتأخر عنه.

وإذا كان الأمر في قوله جل ثناؤه:﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، هو ما وصفنا من أن حال أمره الشيء بالوجود حال وجود المأمور بالوجود، فبَيِّنٌ بذلك أن الذي هو أولى بقوله: ﴿ فَيَكُونُ ﴾الرفع على العطف على قوله﴿ يَقُولُ ﴾لأن «القول» و«الكون» حالهما واحد. وهو نظير قول القائل: «تاب فلان فاهتدى»،

و»اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائباً إلا وهو مهتد، ولا مهتدياً إلا وهو تائب. فكذلك لا يمكن أن يكون الله آمرا شيئاً بالوجود إلا وهو موجود، ولا موجوداً إلا وهو آمره بالوجود. ولذلك استجاز من استجاز نصب «فيكون» من قرأ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾النحل: ٤٠، بالمعنى الذي وصفنا على معنى: أن نقول فيكونَ.

فمعنى الآية إذًا: وقالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه أن يكون له ولد! بل هو مالك السموات والأرض وما فيهما، كل ذلك مقر له بالعبودية بدلالته على وحدانيته. وأنى يكون له ولد، وهو الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل، كالذي ابتدع المسيح من غير والد بمقدرته وسلطانه، الذي لا يتعذر عليه به شيء أراده! بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه: «كن»، فيكون موجوداً كما أراده وشاءه. فكذلك كان ابتداعه المسيح وإنشاؤه، إذْ أراد خلقه من غير والد.

- الطبرسي:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

المعنى: ثم حكى سبحانه نبذاً من أقوال اليهود ودعاويهم الباطلة، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ وهذا على الإيجاز، وتقديره: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلَّا من كان يهودياً وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلَّا من كان نصرانياً، ووحّد كان لأنَّ لفظة ﴿مَن﴾ قد تكون للواحد وقد تكون للجماعة، وإنما قلنا أن الكلام مقدر هذا التقدير. لأن من المعلوم أن اليهود لا يشهدون للنصارى بالجنة ولا النصارى لليهود فعلمنا أنه أدرج الخبر عنهما للإيجاز من غير إخلال بشيء من المعنى، فإن شهرة الحال تغني عن البيان الذي ذكرناه.

وتقديره: ومن يمدحه وينصره غير أنه لما كان اللفظ واحداً. جمع مع الأول وصار

كأنه إخبار عن جماعة واحدة، وإنما حقيقته عن بعضين متفرقين وقوله:﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي: تلك المقالة أماني كاذبة يتمنونها على الله، عن قتادة، والربيع.

وقيل: أمانيهم أباطيلهم بلغة قريش، عن المؤرج. وقيل: معناه تلك أقاويلهم وتلاوتهم من قولهم تمنى أي: تلا، وقد يجوز في العربية أمانيهم بالتخفيف والتثقيل أجود.

﴿قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَاتُوا۟ ﴾ أي: أحضروا وليس بأمر، بل هو تعجيز وإنكار بمعنى إذا لم يمكنكم الإتيان ببرهان يصحح مقالتكم، فاعلموا أنه باطل فاسد ﴿ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ أي: حجتكم عن الحسن ومجاهد والسدي ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في قولكم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾. وفي الآية دلالة على فساد التقليد، ألَّا ترى أنه لو جاز التقليد لما أُمروا بأن يأتوا فيما قالوه ببرهان؟ وفيها أيضاً دلالة على جواز المحاجة في الدّين .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المعنى : ثم رد الله سبحانه عليهم مقالتهم فقال ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ قيل معناه من أخلص نفسه لله بأن سلك طريق مرضاته عن ابن عباس، وقيل وجه وجهه لطاعة الله وقيل فوض أمره إلى الله وقيل: استسلم لأمر الله وخضع وتواضع لله ؛ لأن أصل الإسلام الخضوع والانقياد وإنما خص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله وقيل وهو مؤمن وقيل مخلص ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ معناه: فله جزاء عمله عند الله ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة وهذا ظاهر على قول من يقول أنه لا يكون على أهل الجنة خوف ولا حزن في الآخرة وأما على قول من قال أن بعضهم يخاف ثم يأمن فمعناه أنهم لا يخافون فوت جزاء أعمالهم لأنهم يكونون على ثقة بأن ذلك لا يفوتهم .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

المعنى ثم بين سبحانه ما بين أهل الكتاب من الاختلاف مع تلاوة الكتاب فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في تدينهم بالنصرانية ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في تدينهم باليهودية ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾أي: يقرءونه وذكر فيه وجهان أحدهما: أن فيه حل الشبهة بأنه ليس في تلاوة الكتاب معتبر في الإنكار لما لم يؤت على إنكاره ببرهان فلا ينبغي أن يدخل الشبهة بإنكار أهل الكتاب لملة الإسلام إذ كل فريق من أهل الكتاب قد أنكر ما عليه الآخر ثم بين أن سبيلهم كسبيل من لا يعلم الكتاب من مشركي العرب وغيرهم ممن لا كتاب لهم في الإنكار لدين الإسلام. والوجه الآخر: الذم لمن أنكر ذلك من أهل الكتاب على جهة العناد إذ قد ساوى المعاند منهم للحي الجاهل به في الدفع له فلم ينفعه علمه وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ معناه: أن مشركي العرب الذين هم جهال وليس لهم كتاب هكذا قالوا لمحمد وأصحابه أنهم ليسوا على شيء من الدين مثل ما قالت اليهود والنصارى بعضهم لبعض عن السدي ومقاتل، وقيل معناه: أن مشركي العرب قالوا بأن جميع الأنبياء وأممهم لم يكونوا على شيء وكانوا على خطإ فقد ساووكم يا معشر اليهود في الإنكار وهم لا يعلمون وقيل أن هؤلاء الذين لا يعلمون أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل كقوم نوح وعاد وثمود قالوا لأنبيائهم لستم على شيء عن عطاء وقيل أن الأصح أن المراد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾أسلاف اليهود والمراد بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هؤلاء الذين كانوا على عهد النبي (ص) لأنه حكي قول مبطل لمبطل فلا يجوز أن يعطف عليه قول مبطل لمحق، وقوله:﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه وجوه: أحدها أن حكمه بينهم أن يكذبهم جميعا ويدخلهم النار عن الحسن. وثانيها: أن حكمه فيهم الانتصاف من

الظالم المكذب بغير حجة ولا برهان للمظلوم المكذب عن أبي علي. وثالثها: أن حكمه أن يريهم من يدخل الجنة عيانا ومن يدخل النار عيانا وهذا هو الحكم الفصل في الآخرة بما يصير إليه كل فرقة فأما الحكم بينهم في العقد فقد بينه الله جلَّ وعزَّ فيما أظهر من حجج المسلمين وفي عجز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن عن الزجاج .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

والمعنى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: وأي أحد أشد وأعظم ظلماً ﴿ مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾من ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾، ويكون معناه لا أحد أظلم ممن منع أن يذكر في مساجد الله اسمه سبحانه وعمل في المنع من إقامة الجماعة والعبادة فيها وإذا حمل قوله: ﴿ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ على بيت المقدس أو على الكعبة فإنما جاز جمعه على أحد وجهين: أما أن تكون مواضع السجود فإن المسجد العظيم يقال لكل موضع منه مسجد ويقال لجملته مسجد وأما أن يدخل في هذه اللفظة المساجد التي بناها المسلمون للصلاة وروي عن زيد بن علي عن آبائه عن علي (ع) أنه أراد جميع الأرض لقول النبي (ص) جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً، وقوله: ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ أي: عمل في تخريبها والتخريب إخراجهم أهل الإيمان منها عند الهجرة وقيل هو صدهم عنها ويجوز حمله على الأمرين وقيل المراد المنع عن الصلاة والطاعة فيها وهو السعي في خرابها وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ فيه خلاف قال ابن عباس معناه أنه لا يدخل نصراني بيت المقدس إلاَّ نُهك ضرباً وأبلغ عقوبة وهو كذلك اليوم ومن قال المراد به المسجد الحرام قال لما نزلت هذه الآية أمر النبي (ص) مناديا فنادى ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بهذا البيت عريان فكانوا لا يدخلونه بعد ذلك وقال الجبائي بين الله سبحانه أنه ليس لهؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام ولا دخول غيره من المساجد فإن دخل منهم

داخل إلى بعض المساجد كان على المسلمين إخراجه منه إلاَّ أن يدخل إلى بعض الحكام لخصومة بينه وبين غيره فيكون في دخوله خائفاً من الإخراج على وجه الطرد بعد انفصال خصومته ولا يقعد فيه مطمئناً كما يقعد المسلم قال الشيخ أبو جعفر وهذا يليق بمذهبنا ويمكن الاستدلال بهذه الآية على أن الكفار لا يجوز أن يمكنوا من دخول المساجد على كل حال فأما المسجد الحرام خاصة فيستدل على أن المشركين يمنعون من دخوله ولا يمكنون منه لحكومة ولا غيرها بأن الله تعالى قد أمر بمنعهم من دخوله بقوله ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر يعني المسجد الحرام وقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه في هذه الآية أن أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لا يمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلا خائفا وهذا كقوله سبحانه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فكأنه قيل أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لإعزاز الله الدين وإظهاره المسلمين وقوله:﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ قيل فيه وجوه : أحدها: أن يراد بالخزي أنهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون عن قتادة . وثانيها: أن المراد به القتل وسبي الذراري والنساء إن كانوا حربا وإعطاء الجزية إن كانوا ذمة عن الزجاج . وثالثها: إنَّ المراد بخزيهم في الدنيا أنه إذا قام المهدي وفتح قسطنطينية فحينئذ يقتلهم عن السدي. ورابعها: أن المراد بخزيهم طردهم عن دخول المساجد عن أبي علي وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني: يوم القيامة يعذبهم الله في نار جهنم بالعذاب الأعظم إذ كانوا من كل ظالم أظلم.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

المعنى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أراد أن المشرق والمغرب لله ملكاً، وقيل: أراد أنه خالقهما وصانعهما وقيل: معناه يتولى إشراق الشمس من مشرقها وإغرابها من مغربها ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ معناه: فأينما تولوا وجوهكم فحذف المفعول

للعلم به فثم أي فهناك وجه الله أي قبلة الله عن الحسن ومجاهد وقتادة والوجه والجهة والوجهة القبلة ومثله الوزن والزنة والعرب تسمي القصد الذي تتوجه إليه وجها قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

معناه: إليه القصد بالعبادة، وقيل: معناه فثم الله يعلم ويرى فادعوه كيف توجهتم كقوله تعالى : يريدون وجهه أي يريدونه بالدعاء، ويقال لما قرب من المكان هنا ولما تراخى ثم وهناك، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلاَّ هو﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾الرحمن: ٢٧ أي: ويبقى ربك عن الكلبي، وقيل معناه ثم رضوان الله يعني الوجه الذي يؤدي إلى رضوانه كما يقال هذا وجه الصواب عن أبي علي والرماني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: غني عن أبي عبيدة وتقديره غني عن طاعتكم وإنما يريدها لمنافعكم وقيل واسع الرحمة فلذلك رخص في الشريعة عن الزجاج وقيل: واسع المقدور يفعل ما يشاء ﴿عَلِيمٌ ﴾ أي: عالم بوجوه الحكمة فبادروا إلى ما أمركم به وقيل: عليم أين يضع رحمته على ما توجبه الحكمة وقيل عليم بنياتكم حيثما صليتم ودعوتم .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أن التقدير لا يمنعكم تخريب من خرب المساجد عن أن تذكروه حيث كنتم من أرضه، فللَّه المشرق والمغرب، والجهات كلها، عن علي بن عيسى، وقيل: لما تقدم ذكر الصلاة والمساجد عقبه بذكر القبلة وبيانها .

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

المعنى: لما حكى الله سبحانه قول اليهود في أمر القبلة، ورد عليهم قولهم ذكر مقالتهم في التوحيد راداً عليهم قال: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾.

أي: إجلالاً له عن اتخاذ الولد وتنزيهاً عن القبائح والسوء والصفات التي لا تليق به، وروي عن طلحة بن عبيد الله أنه سأل النبي (ص) عن معنى قوله:

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ فقال تنزيهاً لله عن كل سوء بل له ما في السموات والأرض هذا رد عليهم قولهم: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ملكا والولد لا يكون ملكاً للأب؛ لأن البنوة والملك لا يجتمعان فكيف يكون الملائكة الذين هم في السماء والمسيح الذي هو في الأرض ولداً له فنبه بذلك على أنْ المسيح وغيره عبيد له مخلوقون مملوكون فهم بمنزلة سائر الخلق، وقيل: معناه بل له ما في السماوات والأرض فعلاً، والفعل لا يكون من جنس الفاعل، والولد لا يكون إلاَّ من جنس أبيه فإنَّ من تبنى إنساناً فالذي تبناه لا بد من أن يكون من جنسه، وقوله: ﴿ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه مطيعون، وقال السدي: كل له مطيع يوم القيامة، وقال الحسن: كل له قائم بالشهادة أنه عبده، وقال الجبائي: كل دائم على حال واحدة بالشهادة بما فيه من آثار الصنعة والدلالة على الربوبية: وقال أبو مسلم: كل في ملكه وقهره يتصرف فيه كيف يشاء لا يمتنع عليه.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾.

المعنى : لما نزه الله سبحانه نفسه عن اتخاذ الأولاد، ودل عليه بأن له ما في السماوات والأرض أكَّد ذلك بقوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: منشىء السماوات والأرض على غير مثال امتثله ولا احتذاء من صنع خالق كان قبله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا ﴾ قيل: معناه إذا فعل أمراً أي: أراد إحداث أمر كقوله تعالى :﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾النحل: ٩٨ أي: إذا أردت قراءة القرآن ، وقيل: معناه إذا أحكم أمراً، وقيل: معناه حكم وحتم بأنه يفعل أمراً، والأول أوجه، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ اختلف فيه على وجوه: أحدها: أنه بمنزلة التمثيل لأن المعدوم لا يصح أن يخاطب ولا يؤمر وحقيقة معناه أن منزلة الفعل في تسهله وتيسره عليه وانتفاء التعذر منه كمنزلة ما يقال له كن فيكون، كما يقال قال فلان برأسه، أو بيده كذا إذا حرك رأسه أو أومأ بيده ولم يقل شيئا على الحقيقة، وكما قال أبو النجم :

قد قالت الأنساع للبطن الحق قدما فاضت كالفنيق المحنق

وقال العجاج يصف ثوراً :

وفيه كالأعراض للعكور فكر ثم قال في التفكير

إن الحياة اليوم في الكرور

وقال عمرو بن قميئة السدوسي :

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطياراً يقال له قعِ

وقال آخر:

وقالت له العينان سمعاً وطاعة و حدرتا كالدر لما يثقب

والمشهور فيه قول الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقَالَ قَطِني، مهلاً رُوَيداً قَدْ مَلأتُ بَطْني

وهو قول أبي علي، وأبي القاسم، وجماعة من المفسرين. وثانيها: أنه علامة جعلها الله للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً، وهذا هو المحكي عن أبي الهذيل .

وثالثها: ما قاله بعضهم أن الأشياء المعدومة لما كانت معلومة عند الله تعالى صارت كالموجود فصح أن يخاطبها ويقول لما شاء إيجاده منها كن، والأصح من الأقوال الأول، وهو الأشبه بكلام العرب، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾فصلت: ١١، وإِنَّ حمل على القول الثاني فالمراد أن يقول للملائكة على جهة الإعلام منه لهم وإخباره إياهم عن الغيب كن أي: يقول أكون فيكون فاعل كن الله، وهو في معنى الخبر، وإِنَّ كان اللفظ لفظ الأمر على ما تقدم بيانه، وقد يجوز على هذا أن يكون فاعل كن الشيء المعدوم المراد كونه وتقديره يقول من أجله للملائكة يكون شيء كذا، فيكون ذلك على ما يخبر به لا خلف له ولا تبديل عما يخبر به، وأما القول الثالث فبعيد لأن المعدوم لا يصح خطابه ولا أمره بالكون والوجود ليخرج بهذا الأمر إلى الوجود؛ لأن ذلك امتثال للأمر وتلق له بالقبول والطاعة، وهذا إنما يتصور من المأمور الموجود دون المعدوم، ولو صح ذلك لوجب أن يكون المأمور المعدوم فاعلاً لنفسه كما يكون المتلقي لما يؤمر

به بالقبول فاعلاً لما أمر به، وهذا فاسد ظاهر البطلان، وقال بعضهم: إنما يقول كن عند وجود الأشياء لا قبلها ولا بعدها كقوله تعالى:﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾الروم: ٢٥ وإنما أراد أنه يدعوهم في حال خروجهم لا قبله ولا بعده، وهذا الوجه أيضاً ضعيف؛ لأن من شرط حسن الأمر أن يتقدم المأمور به، وكذلك الدعاء، وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يجوز أن يتخذ ولداً؛ لأنه إذا ثبت أنه منشىء السماوات والأرض ثبت بذلك أنه سبحانه ليس بصفة الأجسام والجواهر، لأن الجسم يتعذر عليه فعل الأجسام، ومن كان بهذه الصفة لم يجز عليه اتخاذ الولد؛ ولأنه سبحانه قد أنشأ عيسى من غير أب من حيث هو مبدع الأشياء فجل عن اتخاذ الأبناء وتعالى علواً كبيراً .

. القرطبي:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾

المعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. وأجاز الفراء أن يكون (هوداً) بمعنى يهودياً، حذف منه الزائد، وأن يكون جمع هائد. وقال الأخفش سعيد: ﴿إِلَّا مَن كَانَ ﴾ جعل (كان) واحداً على لفظ (مَن)، ثم قال هوداً فجمع؛ لأن معنى (من) جمع. ويجوز ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ﴾ وتقدم الكلام في هذا، والحمد لله.

قوله تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾

أصل (هاتوا) هاتيوا، حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، يقال في الواحد المذكر: هات، مثل رام، وفي المؤنث: هاتي، مثل رامي. والبرهان: الدليل الذي يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل قربان وقرابين، وسلطان وسلاطين.

قال الطبري: طلب الدليل هنا يقضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه.

﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يعني في إيمانكم أو في قولكم تدخلون الجنة، أي بينوا ما قلتم ببرهان ثم قال تعالى: (بلى) رداً عليهم وتكذيباً لهم، أي ليس كما تقولون: وقيل إن (بلى) محمولة على المعنى، كأنه قيل أما يدخل الجنة أحد؟ فقيل ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ ومعنى أسلم استسلم وخضع. وقيل: أخلص عمله. وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف مايرى من الإنسان؛ ولأنه موضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل. والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

معناه: ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه. ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة والإنجيل، والجملة في موضع الحال. والمراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في قول الجمهور: كفار العرب؛ لأنهم كتاب لهم. وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى.

الربيع بن أنس: المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى. ابن عباس قدم أهل نجران على النبي (ص) فأتتهم أحبار اليهود؛ فتنازعوا عند النبي (ص)، وقالت كل فرقة منهم للأخرى: لستم على شيء، فنزلت الآية.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾، (من) رفع بالابتداء، و(أظلم) خبره، والمعنى لا أحد أظلم. و(أن) في موضع نصب على البدل

من (مساجد)، ويجوز أن يكون التقدير: كراهية أن يذكر، ثم حذف. ويجوز أن يكون التقدير: من أن يذكر فيها؛ وحرف الخفض يحذف مع (أن) لطول الكلام. وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبُهُ. وقيل الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد أو للتعظيم. وقيل: المراد سائر المساجد، والواحد مسجد (بكسر الجيم)، ومن العرب من يقول: مسجد، (بفتحها). قال الفراء: كل ما كان فعَل يفعُل، مثل دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح اسماً كان أو مصدراً، ولا يقع فيه الفرق، مثل دخل يدخل مدخلاً، وهذا مدخلُه، إلا أحرفاً من الأسماء ألزموها كسر العين؛ من ذلك: المسجِد والمطلِع والمغرِب والمشرِق.. فجعلوا الكسر علامة للاسم، وربما فتحه بعض العرب في الاسم. والمسجَد بالفتح: جبهة الرجل حيث يصيبه ندبّ السجود. والآداب: السبعة مساجد؛ قاله الجوهري.

واختلف الناس في المراد بهذه الآية وفيمن نزلت، فذكر المفسرون أنها نزلت في بخت نصر، لأنه كان أخرب بيت المقدس وقال ابن ابن عباس وغيره: نزلت في النصارى؛ والمعنى: كيف تدّعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة! وقد خربتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه. ومعنى الآية على هذا: التعجب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود.

قال علمائنا: ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج إذا كانت ضرورة، سواء كان لها محرم أو لم يكن؛ ولا تمنع أيضاً من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة؛ وكذلك قال النبي (ص) «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» ولذلك قلنا: لا يجوز نقض المسجد ولا بيعُهُ ولا تعطيله وإن خربت المحلة، ولا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف، بأن يبنوا مسجداً إلى جنب مسجد أو قربه، يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه واختلاف الكلمة، فإن المسجد الثاني ينقض ويمنع من بنيانه ولذلك قلنا: لا يجوز أن يكون في المصر جامعان، ولا لمسجد واحد إمامان. ولا يصلى في مسجد جماعتان. وسيأتي لهذا كله مزيد بيان في سورة (براءة) إن شاء الله تعالى، وفي (النور) حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى. ودلّت الآية أيضاً على

تعظيم أمر الصلاة، وأنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجراً كان منعها أعظم إثماً.

كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمى مسجداً؛ قال (ص): «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، أخرجه الأئمة. وأجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين، فلو بنى رجل في داره مسجداً وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقي على ملكه، ولم يخرج إلى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن اختصاص الأملاك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ (أولئك) مبتدأ وما بعده خبره. (خائفين) حال؛ يعني إذا استولى عليها المسلمون، وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها. فإن دخلوها، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها، وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال، على ما يأتي في (براءة) إن شاء الله تعالى. ومن جعل الآية في النصارى روي أنه مرّ زمان بعد بناء عمر بيت المقدس في الإسلام لا يدخله نصراني إلا أوجع ضرباً بعد أن كان متعبّدهم. ومن جعلها في قريش قال: كذلك نودي بأمر النبي (ص): «ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». وقيل: هو خبر ومقصوده الأمر؛ أي جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفاً، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الأحزاب: ٥٣ فإنه نهي ورد بلفظ الخبر.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيل القتل للخزي، والجزية للذمّي، عن قتادة.

السدّي: الخزي لهم في الدنيا قيام المهدي، وفتح عمورية ورومية وقسطنطينية، وغير ذلك من مدنهم، على ما ذكرناه في كتاب التذكرة. ومن جعلها في قريش جعل الخزي عليهم في الفتح، والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ (المشرق) موضع الشروق. (والمغرب) موضع الغروب أي هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع، كما تقدم. وخصهما بالذكر والإضافة إليه تشريفاً، نحو بيت الله، وناقة الله ولأن سبب الآية اقتضى ذلك؛ على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ شرط، ولذلك حذفت النون، و(أين) العاملة، وما زائدة، والجواب ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ وقرأ الحسن: (تولّوا) بفتح التاء واللام، والأصل تتولّوا. و(ثم) في موضع نصب على الظرف، ومعناها البعد؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير معربة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبعد، فإن أردت القُرب قلت هنا.

اختلف العلماء في المعنى الذي نزلت فيه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾على خمسة أقوال: فقال عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلّى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة؛ أخرجه الترمذي عنه عن أبيه قال: كنا مع النبي (ص) في سفر في ليلة مظلمة فلم ندْرِ أين القبلة، فصلّى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي (ص) فنزلت: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

قال أبو عيسى: هذا حديث ليس إسناده بذاك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث بن سعيد أو الربيع يضعّف في الحديث. وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا؛ قالوا: إذا صلى في الغيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة، وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق.

والأصل عندهم في ذلك صلاة النبي (ص) على النجاشي. وقال علماؤنا رحمة الله عليهم: النبي (ص) بذلك مخصوص لثلاثة أوجه:

أحدهما: أن الأرض دحيت له جنوباً وشمالاً حتى رأى نعش النجاشي، كما دحيت له شمالاً وجنوباً حتى رأى المسجد الأقصى، وقال المخالف: وأي فائدة في رؤيته، وإنما الفائدة في لحوق بركته.

الثاني: أن النجاشي لم يكن له هناك ولي من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه. قال

المخالف: هذا محال عادة! ملك على دين لا يكون له أتباع، والتأويل بالمحال محال.

الثالث: أن النبي (ص) إنما أراد بالصلاة على النجاشي إدخال الرحمة عليه، واستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حياً وميتاً. وقال المخالف: بركة الدعاء من النبي (ص) ومن سواه تلحق الميت باتفاق قال ابن العربي: والذي عندي في صلاة النبي (ص) على النجاشي أنه علم أن النجاشي ومن آمن معه ليس عندهم من سنة الصلاة على الميت أثر، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه.

قلت: والتأويل الأول أحسن؛ لأنه إذا رآه فما صلى على غائب وإنما صلى على مرأى حاضر، والغائب ما لا يرى. والله تعالى أعلم.

قال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي (ص) إلى بيت المقدس وقالوا: ما اهتدى إلا بنا، فلما حوّل إلى الكعبة قالت اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾البقرة: ١٤٢ فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فوجه النظم على هذا القول: إن اليهود لما أنكروا أمرا لقبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبّد عباده بما شاء، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة، فعل لا حجة عليه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾الأنبياء: ٢٣ .

إن الآية منسوخة بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾البقرة: ١٤٤ ذكره ابن عباس فكأنه كان يجوز في الابتداء أن يصلي المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك. وقال قتادة: الناسخ قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾البقرة: ١٤٤ أي تلقاءه؛ حكاه أبو عيسى الترمذي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يوسّع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسْعهم. وقيل: (واسع) بمعنى أنه يسع علمه كل شيء، كما قال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾طه: ٩٨ . وقال الفراء: الواسع هو الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء، دليله قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾الأعراف: ١٥٦. وقيل: واسع المغفرة أي لا يتعاظمه ذنب. وقيل: متفضّل على العباد وغني عن أعمالهم،

يقال: فلان يسع ما يسأل، أي لا يبخل، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق/٧] أي لينفق الغني مما أعطاه الله. وقد أتينا عليه في الكتاب (الاسني) والحمد لله.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا إخبار عن النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، وقيل عن اليهود في قولهم: عزير ابن الله. وقيل عن كفرة العرب في قولهم: الملائكة بنات الله. وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار في (مريم) و(الأنبياء).

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ﴾ الآية. خرّج البخاري عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: «قال الله تعالى كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدا».

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب على المصدر، ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة، من قولهم: اتخذ الله ولداً؛ بل هو الله تعالى واحد في ذاته، أحد في صفاته، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة،﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ الأنعام: ١٠١ ولم يولد فيكون مسبوقاً؛ جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً! ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (ما) رفع بالابتداء والخبر في المجرور؛ أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع. والقائل بأنه اتخذ ولداً داخل في جملة السموات والأرض. وقد تقدّم أن معنى سبحان الله براء الله من السوء. لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولداً من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء؛ وقد قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ مريم: ٩٣، كما قال هنا: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث، والقدم

يقتضي الوحدانية والثبوت؛ فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ثم إن النبوة تنافي الرقّ والعبودية. على ما يأتي بيانه في سورة (مريم) إن شاء الله تعالى فكيف يكون ولد عبداً! هذا محال، وما أدى إلى المحال محال.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم: (قانتون) أي مطيعون وخاضعون، فالمخلوقات كلها تقنت لله، أي تخضع وتطيع، والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم. فالقنوت الطاعة، والقنوت السكوت، ومنه قول زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه إلى جنبه حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾البقرة: ٢٣٨ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

وقال السدّي وغيره في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي يوم القيامة. الحسن: كل قائم بالشهادة أنه عبده. والقنوت في اللغة أصله القيام؛ ومنه الحديث: «أفضل الصلاة طول القنوت» قاله الزجاج: فالخلق قانتون، أي قائمون بالعبودية إما إقراراً وإما أن يكونوا على خلاف ذلك، فأثر الصنعة بيّن عليهم. وقيل: أصله الطاعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الأحزاب/٣٥]. وسيأتي لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

قوله تعالى:﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فعيل للمبالغة، وارتفع على خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدِع كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال؛ فالله عز وجل بديع السموات والأرض، أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع؛ ومنه أصحاب البدع. وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال؛ وفي البخار: «ونعمت البدعة هذه» يعني قيام رمضان.

كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه، فهي في حيّز المدح. وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه؛ لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح، وهي وإن كان النبي (ص) قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس عليها، فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمرا لله به ورسوله فهي في حيّز الذم والإنكار، قال معناه الخطّابي وغيره.

وهو معنى قوله (ص) في خطبته: «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» يريد ما لم يوافق كتاباً أو سنّة، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم، وقد بيّن هذا بقوله: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وهذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن، وهو أصل هذا الباب، وبالله العصمة والتوفيق، لا ربّ غيره.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد إحكامه واتقانه. كما سبق في علمه ـ قال له كن. قال ابن عرفة: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه؛ ومنه سمّي القاضي؛ لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بيّن الخصمين وقال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه.

قال علماؤنا: (قضى) لفظ مشترك، يكون بمعنى الخلق، قال الله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ فصلت: ١٢ أي خلقهن. ويكون بمعنى الإعلام، قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الإسراء: ٤ أي أعلمنا. ويكون بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الإسراء: ٢٣ ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ومنه سمّي الحاكم قاضياً.

ويكون بمعنى توفية الحق؛ قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾القصص: ٢٩ ويكون بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد خلق شيء. قال ابن عطية: (قضى) معناه قدّر؛ وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدّر في الأزل وأمضى فيه. وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

قوله تعالى: (أمراً) الأمر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر. قال علماؤنا: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً:

الأول: الدين؛ قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾التوبة: ٤٨يعني دين الله الإسلام.

الثاني: القول، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾المؤمنون: ٢٧ يعني قولنا، وقوله: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾طه: ٦٢ يعني قولهم.

الثالث: العذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾إبراهيم: ٢٢ يعني لما وجب العذاب بأهل النار.

الرابع: عيسى (ع)، قال الله تعالى:﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾آل عمران: ٤٧ يعني عيسى، وكان في علمه أن يكون من غير أب.

الخامس: القتل ببدر، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾غافر: ٧٨ يعني القتل ببدر، وقوله تعالى:﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾الأنفال: ٤٤ يعني قتل كفار مكة.

السادس: فتح مكة؛ قال الله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾التوبة: ٢٤ يعني فتح مكة.

السابع: قتل قريظة وجلاء بني النضير، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾البقرة: ١٠٩.

الثامن: القيامة؛ قال الله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾النحل: ١.

التاسع: القضاء؛ قال الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾يونس: ٣ يعني القضاء.

العاشر: الوحي، قال الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾السجدة:

٥يقول: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾الطلاق: ١٢ يعني الوحي.

الحادي عشر: أمر الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾الشورى: ٥٣ يعني أمور الخلائق.

الثاني عشر: النصر، قال الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾آل عمران: ١٥٤. يعنون النصر، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾آل عمران: ١٥٤ يعني النصر.

الثالث عشر: الذنب، قال الله تعالى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾الطلاق: ٩ يعني جزاء ذنبها.

الرابع عشر: الشأن والفعل، قال الله تعالى:﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾هود: ٩٧ أي فعله وشأنه، وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾النور: ٦٣أي فعله.

قوله تعالى: ﴿ كُن ﴾ قيل: الكاف من كينونه، والنون من نوره، وهي المراد بقوله (ع): «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق». ويروي : «بكلمة الله التامة». على الإفراد.

فالجمع لما كانت هذه الكلمة في الأمور كلها، فإذا قال لكل أمركن، ولكل شيء كن، فهن كلمات. يدل على هذا ما روي عن أبي ذر عن النبي (ص) فيما يحكى عن الله تعالى: «عطائي كلام وعذابي كلام». خرّجه الترمذي في حديث فيه طول والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضاً؛ لكن لما تفرقت الكلمة الواحدة في الأمور في الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة. وإنما قيل: (تامة) لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف: حرف مبتدأ، وحرف تحش به الكلمة، وحرف يسكت عليه. وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص، كيد ودم وفم، وإنما نقص لعلة. فهي من الآدميين من المنقوصات لأنها على حرفين؛ ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات. ومن ربنا تبارك وتعالى تامة، لأنها بغير الأدوات، تعالى عن شبه المخلوقين.

قوله تعالى: ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قرئ برفع النون على الاستئناف قال سيبويه: فهو يكون، أو فإنه يكون. وقال غيره: هو معطوف على (يقول). فعلى الأول كائناً بعد الأمر، وإن كان معدوماً فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم؛ على ما يأتي بيانه.

وعلى الثاني كائناً مع الأمر؛ واختاره الطبري وقال: أمره للشيء بـ(كن) لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجودٌ بالأمر، ولا موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود، على ما يأتي بيانه، قال: ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدم دعاء الله ولا يتأخر عنه، كما قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾الروم: ٢٥ .

وضعّف ابن عطية هذا القول وقال: هو خطأ من جهة المعنى؛ لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود.

- الشيرازي:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

القرآن في هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الإدعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾، ثم يجيبهم جواباً رادعاً قائلاً ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، وأنه مجرد أُمنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنّة على شكل قانون عام ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

بعبارة موجزة: الجنّة ومرضاة الله والسعادة الخالدة ليست حكراً على طائفة معينة، بل هي نصيب كل من يتوفر فيه شرطان:

الأوّل: التسليم التام لله تعالى، أو الإنصياع لأوامره سبحانه، وعدم التفريق بين هذه الأوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذي لا ينسجم مع المصالح

الفردية الذاتية.

الثّاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الأُولى، من القيام بالأعمال الصالحة والإِحسان في جميع المجالات.

والقرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التعصب العنصري ويكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة، ويضع ضمنياً معيار الفوز متمثلاً بالإِيمان، والعمل الصالح.

١ ـ ((الأماني)) جمع ((أُمنية)) وهي الرجاء الذي لا يتحقق للإِنسان.

والآية تطرح أُمنية واحدة من أُمنيات أهل الكتاب، ولكن هذه الأُمنية ــ أي أمنية احتكار الجنّة ـ هي مصدر أمان أُخرى، وبعبارة أُخرى: أُمنيتهم لها فروع وإمتدادات، ولذلك عبر عنها القرآن بلفظ (أماني).

٢ ـ نسبت الآية الكريمة التسليم إلى (الوجه): ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾، وذلك يعود إلى أن الإِنسان حين يستسلم لشيء، فأوضح مظهر لهذا الإِستسلام هو أن يولي وجهه تجاه ذلك الشيء. ومن المتحمل أيضاً أن ((الوجه)) يعني في الآية الذات، ويكون المعنى أن هؤلاء أسلموا بكل وجودهم لأوامر الله.

٣ ـ الآيتان المذكورتان تعلّمان المسلمين عدم الإِنجراف وراء الإِدعاءات الباطلة غير القائمة على دليل، وتعلمهم أن يطلبوا الدليل والبرهان من صاحب الإِدعاء، وبذلك يسدّ القرآن الطريق أمام الإِنجراف الأعمى وراء التقليد، ويجعل التفكير المنطقي سائداً في المجتمع.

٤ ـ ذكر عبارة﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ بعد طرح مسألة التسليم، إشارة إلى أن الإِحسان بالمعنى الواسع للكلمة لا يتحقق إِلاَّ برسوخ الإِيمان في النفوس. كما تفهم العبارة أن صفة الإِحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.

ونفي الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل

يخشون أموراً خرافية موهومة تقلقهم وتقضّ مضاجعهم.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

سبب النّزول:

قال ابن عباس أنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله (ص) آتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله (ص)، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شَيء، وجحد بنبوّة عيسى وكفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شيء، وجحد بنبوّة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية.

في ما مرّ بنا من آيات رأينا جانباً من الإدعاءات الفارغة التي أطلقها جمع من اليهود والنصارى، ورأينا أن هذه الإدعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة، ثم وقوع في التناقضات.

تقول الآية: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾.

عبارة ((لَيْسَتْ عَلى شَيْء)) تعني أن أفراد هذا الدين لا مكانة لهم ولا منزلة لدى الله سبحانه، أو تعني أن هذا الدين لا وزن له ولا قيمة.

ثم تضيف الآية: ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾.

أي: إنّ هؤلاء لديهم الكتاب الذي يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد!!

ثم تقول الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾.

وهذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنيين. بعبارة أُخرى: هذه الآية تقرر أن المصدر الأساس

للتعصب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره وإنّ كان خرافياً، ويرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لا تخفى في الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

وهذه الآية فيها أيضاً تثبيت للقلوب وطمأنة للنفوس، فهي تؤكد للمسلمين أنّ الطوائف التي تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالإنسجام والوحدة، بل إنّ مجاميعها يكفّر بعضهم بعضاً، والذي يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، وبالتالي التعصب الناشيء عن هذا الجهل.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

سبب النّزول:

روي عن ابن عباس إنَّه الآية نزلت في ((فطلوس)) الرومي وجنده النصارى الذين حاربوا بني إسرائيل، وأحرقوا التوراة، وأسروا الأبناء وهدموا بيت المقدس.

وعن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه حتى أظهر الله المسلمين عليهم.

وعن الإمام الصادق (ع) أنها نزلت في قريش حين حالوا دون دخول الرّسول (ص) مدينة مكة والمسجد الحرام.

وقيل إنها نزلت في مشركي مكة ممن هدموا الأماكن التي اتخذها المسلمون للصلاة في مكّة، بعد هجرة النّبي (ص) منها.

ولا يمنع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الأحداث، وبذلك يكون كل واحد من أسباب النّزول المذكورة قد تناول بُعداً واحداً من أبعاد المسألة.

أسباب النّزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشركين، مع أن الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود وأحياناً عن النصارى.

على أي حال ((اليهود)) بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا إلى أن يتجه المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، وليحطوا من مكانة الكعبة.

و((مشركو مكة)) بمنعهم النّبي (ص) والمسلمين زيارة الكعبة سعوا عملياً في هدم هذا البناء الإلهي.

و((النصارى)) باستيلائهم على بيت المقدس والعبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا في تخريبه.

القرآن يقول لهؤلاء جميعاً ولكل من يسلك طريقاً مشابهاً لهؤلاء: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾.

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم ((الظلم الكبير))، وعلى العاملين اسم ((أظلم النّاس)) وأيّ ظلم أكبر من تخريب قاعدة التوحيد، وصدّ النّاس عن ذكر الله؟!

ثم تقول الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾.

أي إنَّ المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القوّة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة، ولا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

ومن المحتمل أيضاً أن الآية تقول: إنَّ الظلمة لن يستطيعوا أبداً أنّ ينجحوا في الإستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون في المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلاَّ وهم خائفون مذعورون، تماماً كالمصير الذي لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

والآية تبين بعد ذلك العقاب الذي ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين الله وعباده: ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

تخريب المساجد:

مفهوم الآية المذكورة واسع ــ دون شك ـ غير محدود بزمان أو مكان معينين. إنها مثل سائر الآيات التي نزلت في ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّ العصور والدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع في تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي والعذاب العظيم.

من الضروري أن نؤكد أن منع الذكر في مساجد الله والسعي في خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إنَّ كل عمل يؤدي إلى القضاء على دور المسجد في المجتمع مشمول بهذه الآية.

وسوف نرى في الآية ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾التوبة: ١٨ أن المقصود من العمران ـ استناداً إلى الأحاديث والروايات الصريحة ـ ليس هو تشييد البناء فحسب، بل الحضور فيها واحياؤها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم أنواع العمران.

وفي النقطة المقابلة ــ إذن ــ يكون كل عمل يبعد النّاس عن المساجد، ويبعد المساجد عن دورها ظلماً كبيراً.

ومن المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابيّة تسعى في تخريب المساجد بحجة إحياء التوحيد!!

هؤلاء عمدوا إلى تخريب المساجد المبنيّة على قبور الأئمة والصالحين، والتي كانت مركزاً للذكر والدعاء والإرتباط بالله وبخط الصالحين من آل الله. ومن الغريب أنهم يمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر.

ولو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع في بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود إلى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهليين.

ومسألة أُخرى تلفت النظر في هذه الآية، هي وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم النّاس. وهم كذلك؛ لأن تعطيل المساجد وتخريبها ومنع ذكر الله فيها، يؤدي

إلى ابتعاد النّاس عن الدين، وبالتالي إلى عواقب سيئة ومأساة اجتماعية عظيمة.

وصفة ((الأظلم)) ذكرها القرآن الكريم في مواضع أُخرى للحكاية عن كبائر أُخرى، لكن كل هذه الذنوب تعود إلى أصل واحد هو صدّ النّاس عن طريق التوحيد.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

سبب النّزول:

اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية: روي عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعندما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة بدأ اليهود يشككون قائلين: وهل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم وتقول إن المشرق والمغرب لله.

وروي أيضاً: أَنَّ الاية نَزَلَتْ فِي الصَّلاَةِ الْمُسْتَحبَّةِ يَسْتَطِيعُ الاْنْسَانُ أَنْ يُؤَدِّيهَا عَلى رَاحِلَتِه أَيْنَمَا اتَّجَهَتِ الرَّاحِلَةُ، دُونَ اشْتِرَاطِ الاتِّجَاه نَحوَ الْقِبْلَة.

وروي عن جابر أَنَّ الرَّسُولَ (ص) بَعَثَ جَمَاعَةً فِي غَزْوَة، فَجَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَعْرِفُوا اتِّجَاهَ الْقِبْلَة، فَصَلَّتْ كُلُّ مَجْمُوعَة صَوْبَ جهَة، وَبَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ سَأَلُوا النَّبيَّ عَنْ ذَلِكَ فَنَزَلَتِ الاْيَةُ الْكَرِيمَةُ (هذا الحكم له شروط طبعاً تذكره الكتب الفقهية).

ومن الممكن أن تكون أسباب النّزول المذكورة كلها ثابتة للآية، أضف الى ذلك أن كل آية في القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، وربما استخرج منها أحكام متعددة.

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة فتقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

تؤكد هذه الآية أن منع النّاس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم وغربه لله سبحانه، وأينما تولوا وجوهكم فالله موجود.

وتغيير القبلة تمّ لظروف خاصة، وليس له علاقة بمكان وجود الله، فالله سبحانه وتعالى لا يحده مكان، ولذلك تقول الآية بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

واضح أن المقصود بالمشرق والمغرب في الآية ليس هو الجهتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات. كأن يقول أحد مثلاً: أعداء علي(ع) سعوا للتغطية على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم وغربه، (أي في كل العالم). ولعل سبب شيوع استعمال الشرق والغرب في الكلام أن الإنسان يتعرف أولاً على هاتين الجهتين، ثم يعرف بقية الجهات عن طريق هاتين الجهتين.

وفي آية أُخرى يقول القرآن الكريم: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾الأعراف: ١٣٧.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنّوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله ابناً.

قال سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾التوبة: ٣٠.

وقال عزّ شأنه: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾يونس: ٦٨.

وهناك آيات أُخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.

وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تقول: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ ثم تجيب عليهم أوّلاً بتنزيه الله عن هذه النسبة: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ فما حاجة الله إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل؟! نعم، لا يمكن نسبة أي إحتياج إلى الله ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ وجميع الكون خاضع له ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

وليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أي:

موجدها دون إحتياج إلى مادة أولية في هذا الإيجاد ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

ما حاجة الله إلى الولد وهو النافذ الإرادة في جميع الموجودات؟! ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾غافر: ٦٨ .

المقصود من جملة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ليس هو صدور الأمر اللفظي ((كُنْ)) من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق إرادة الله سبحانه حينما تقتضي إيجاد شيء من الأشياء، صغيراً بحجم الذّرة كان، أم كبيراً بحجم السماوات والأرض، بسيطاً كان أم معقداً، دون أن يحتاج في ذلك الإيجاد إلى أية علّة أُخرى، ودون أن تكون هناك أية فترة زمنية بين الإرادة والإيجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر والكينونة، ولذلك فإن الفاء في جملة ((فَيَكُون)) ، لا تدل على تأخير زمني كما هو الحال في الجمل الأُخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، وهذا التأخر ليس زمنياً، بل في الرتبة).

ليس المقصود أن الشيء يصبح موجوداً متى ما أراد الله ذلك، بل المقصود أن الشيء يصبح موجوداً بالشكل الذي أراده الله.

على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات والأرض في ستة أيّام، لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إرادته ولما يراه من مصلحة.

ولو شاء الله ــ مثلاً ــ أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر وتسعة أيّام ليطوي مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة وما نقصت. أمّا لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعاً، لأن إرادته علّة تامّة للخليقة، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة ووجود المعلول.

كيف يوجد الشيء من العدم؟

كلمة ((بَدِيعُ)) من ((بدع))، والإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه، وفي

الآية بمعنى إيجاد الشيء من غير مادة سابقة.

والسّؤال الذي يطرح في هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشيء من العدم، فكيف يمكن للعدم ــ وهو نقيض الوجود ــ أن يكون منشأ للوجود؟ وهذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة ((الإبداع)) ليستنتجوا منها أن المادة الأصلية للعالم أزلية أبدية، ولا يطرأ عليها وجود وعدم إطلاقاً.

الجواب

في المرحلة الأُولى، يوجّه نفس هذا الإعتراض إلى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة أزلية، ولم ينقص منها شيء حتى الآن، والذي نراه يتغير هو ((الصورة)) وحدها، لا أصل المادة. ونحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟

على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنّ زيوت التلوين كانت موجودة، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه ((الصورة)) التي لم تكن موجودة من قبل؟

كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد ((الصورة)) من ((العدم)) نقدمه نحن أيضاً بشأن إيجاده ((المادة)).

وفي المرحلة الثانية، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمة ((من)). هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضدة وجدت من الخشب) حيث لابدّ من وجود الخشب أوّلاً لكي توجد المنضدة. بينما جملة ((وجود العالم من العدم)) لا تعني ذلك. بل تعني ((أن العالم لم يكن موجوداً ثم وجد)). وهل في هذه العبارة تضاد أو تناقض؟!

وبالتعبير الفلسفي: كل موجود ممكن (الذي لا يملك الوجود ذاتياً) له جانبان: ماهية ووجود، ((الماهية)) هي ((المعنى الإعتباري)) الذي يتساوى في نسبته للعدم

والوجود. بعبارة أُخرى، الماهية هي المقدار المشترك الذي نفهمه من ملاحظة وجود شيء وعدمه. فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقاً وهي موجودة الآن، والشخص الفلاني لم يكن موجوداً سابقاً وهو الآن موجود، وما أسندنا إليه الحالتين (الوجود والعدم) هي ((الماهية)).

من هنا يكون معنى قولنا (إنَّ الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحان نقل الماهية من حالة العدم إلى حالة الوجود، وبعبارة أُخرى وضع لباس ((الوجود)) على جسد ((الماهية)).

ـ الفخر الرازي:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع: من تخليط اليهود وإلقاء الشبه في قلوب المسلمين، واعلم أن اليهود لا تقول في النصارى: إنها تدخل الجنة، ولا النصارى في اليهود، فلا بد من تفصيل في الكلام فكأنه قال: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، ولا يصح في الكلام سواه، مع علمنا بأن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، ونظيره: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾البقرة: ١٣٥ والهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ وبازل وبزل، فإن قيل: كيف قيل: كان هوداً، على توحيد الاسم، وجمع الخبر؟ قلنا: حمل الاسم على لفظ (من) والخبر على معناه كقراءة الحسن: ﴿ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾الصافات: ١٦٣، وقرأ أبي بن كعب: ﴿إِلاَّ مَن كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا﴾ أما قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ ﴾ فالمراد أن ذلك متمنياتهم، ثم إنهم لشدة تمنيهم لذلك قدروه حقاً في نفسه، فإن قيل: لم قال: و﴿ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ ﴾ وقولهم:﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ أمنية واحدة؟ قلنا: أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من

ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ متصل بقوله: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ و﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ اعتراض، قال (عليه الصلاة والسلام) «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» وقال علي رضي الله عنه: «لا تتكل على المنى فإنها بضائع التولي».

أما قوله تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: هات: صوت بمنزلة هاء في معنى أحضر.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفياً، أو إثباتاً، فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد قال الشاعر:

من ادعى شيئاً بلا شاهد لا بد أن تبطل دعواه

أما قوله تعالى:﴿ بَلَىٰ ﴾ ففيه وجوه.الأول: أنه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.الثاني: أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان أثبت أن لمن أسلم وجهه لله برهاناً.الثالث: كأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة، بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة، فيكون ذلك ترغيباً لهم في الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة لكي يقلعوا عما هم عليه ويعدلوا إلى هذه الطريقة، فأما معنى: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ فهو إسلام النفس لطاعة الله، وإنما خص الوجه بالذكر لوجوه. أحدها: لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى. وثانيها: أن الوجه قد يكنى به عن النفس، قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ القصص: ٨٨ ، ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾الليل: ٢٠ . وثالثها: أن اعظم العبادات السجدة وهي إنما تحصل بالوجه فلا جرم خص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل.

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالا

فيكون المرء واهباً نفسه لهذا الأمر باذلالها، وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء، وذلك لا يكون إلاّ بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه، ومعنى (لله) أي: خالصاً لله لا يشوبه شرك، فلا يكون عابداً مع الله غيره، أو معلقاً رجاءه بغيره، وفي ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله إلاّ إذا فعله على وجه العبادة في الإخلاص والقربة.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي: لا بد وأن يكون تواضعه لله بفعل حسن لا بفعل قبيح، فإن الهند يتواضعون لله لكن بأفعال قبيحة، وموضع قوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ موضع حال كقولك: جاء فلان وهو راكب، أي جاء فلان راكباً، ثم بين أن من جمع بين هذين فله أجره عند ربه، يعني به الثواب العظيم، ثم مع هذا النعيم لا يلحقه خوف ولا حزن، فأما الخوف فلا يكون إلاّ من المستقبل، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضي كما قد يكون من المستقبل فنبه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة لأن النعيم العظيم إذا دام وكثر وخلص من الخوف والحزن فلا يحزن على أمر فاته ولا على أمر يناله ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره فقد بلغ النهاية وفي ذلك ترغيب في هذه الطريقة وتحذير من خلافها الذي هو طريقة الكفار المذكورين من قبل.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾

اعلم أنه تعالى لما جمعهم في الخبر الأول فصلهم في هذه الآية، وبين قول كل فريق منهم في الآخر، وكيف ينكر كل طائفة دين الأخرى، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي على شيء يصح ويعتد به وهذه مبالغة عظيمة وهو كقولهم: أقل من لا شيء، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلۡ

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ المائدة: ٦٨ ، فإن قيل: كيف قالوا ذلك مع أن الفريقين كانا يثبتان الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، وذلك قول فيه فائدة؟ قلنا: الجواب من وجهين، الأول: أنهم لما ضموا إلى ذلك القول الحسن قولاً باطلاً يحبط ثواب الأول، فكأنهم ما أتوا بذلك الحق.الثاني: أن يخص هذا العام بالأمور التي اختلفوا فيه، وهي ما يتصل بباب النبوات.

المسألة الثانية: روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى (عليه السلام) والإنجيل، وقالت النصارى لهم: نحوه وكفروا بموسى (عليه السلام) والتوراة.

المسألة الثالثة: اختلفوا فيمن هم الذين عناهم الله تعالى أهم الذين كانوا من بعثة عيسى (عليه السلام) أو في زمن محمد (عليه السلام)، والظاهر الحق أنه لا دليل في الظاهر عليه وإن كان الأولى أن يحمل على كل اليهود وكل النصارى بعد بعثة عيسى (عليه السلام)، ولا يجب لما نقل في سبب الآية أن يهودياً خاطب النصارى بذلك فأنزل الله هذه الآية أن لا يراد بالآية سواه، إذا أمكن حمله على ظاهره وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ يفيد العموم فما الوجه في حمله على التخصيص ومعلوم من طريقة اليهود والنصارى أنهم منذ كانوا فهذا قول كل فريق منهما في الآخر.

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ فإنه يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالماً لكي يصح هذا الفرق، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف فكيف حال من لايعلم، واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن، ثم اختلفوا فيمن هم الذين لا يعلمون على وجوه. أولها: أنهم كفار العرب الذين قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء فبين تعالى أنه إذا كان قول اليهود والنصارى وهم يقرأون الكتب لا ينبغي أن يقبل ويلتفت

إليه فقول كفار العرب أولى أن لا يلتفت إليه. وثانيها: أنه إذا حملنا قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على الذين كانوا حاضرين في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم)، حملنا قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على المعاندين وعكسه أيضاً محتمل. وثالثها: أن يحمل قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على علمائهم ويحمل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على عوامهم فصلاً بين خواصهم وعوامهم، والأول أقرب: لأن كل اليهود والنصارى دخلوا في الآية فمن ميز عنهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يجب أن يكون غيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿فالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ففيه أربعة أوجه. أحدها: قال الحسن: يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار. وثانيها: حكم الانتصاف من الظالم المكذب للمظلوم المكذب. وثالثها: يريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً، وهو قول الزجاج. ورابعها: يحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه، والله أعلم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: اجمع المفسرون على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء، أعني مجرد بيان أن من فعل كذا فإن الله يفعل به كذا بل المراد منه بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها، ثم أن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية إلاّ أنهم اختلفوا في أن الذين منعوا من عمارة المسجد وسعوا في خرابه من هم؟ وذكروا فيه أربعة أوجه. أولها: قال ابن عباس: أن ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقية وأحرق التوراة، ولم يزل بيت المقدس خراباً حتى بناه أهل الإسلام في زمن عمر. وثانيها: قال الحسن وقتادة والسدي: نزلت في بختنصر حيث خرب بيت المقدس وبعض النصارى أعانه

على ذلك بغضاً لليهود.

قال أبو بكر الرازي في أحكام القرآن: هذان الوجهان غلطان لأنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح (عليه السلام) بدهر طويل والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس وأيضاً فإن النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر، فكيف أعانوا على تخريبه. وثالثها: أنها نزلت في مشركي العرب الذين منعوا الرسول (عليه الصلاة والسلام) عن الدعاء إلى الله بمكة وألجؤه إلى الهجرة، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام، وقد كان الصديق رضي الله عنه بنى مسجداً عند داره فمنع وكان ممن يؤذيه ولدان قريش ونساؤهم، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ الإسراء: ١١٠ نزلت في ذلك فمنع من الجهر لئلا يؤذى، وطرح أبو جهل العذرة على ظهر لنبي (صلى الله عليه وسلم) فقيل: ومن أظلم من هؤلاء المشركين الذين يمنعون المسلمين الذين يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً ويصلون له تذللاً وخشوعاً، ويشغلون قلوبهم بالفكر فيه، وألسنتهم بالذكر له، وجميع جسدهم بالتذلل لعظمته وسلطانه. ورابعها: قال أبو مسلم: المراد منه الذين صدوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، واستشهد بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الفتح: ٢٥ ، وبقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الأنفال: ٣٤ وحمل قوله: ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ بما يعلي الله من يده، ويظهر من كلمته، كما قال في المنافقين: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ الأحزاب: ٦٠ - ٦١ وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم: وهو أن يقال: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله

بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلاّ قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضاً على ما شرحه أبو بكر الرازي، فلم يبق إلاّ ما قلناه.

المسألة الثانية: في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: فأما من حملها على النصارى وخراب بيت المقدس قال: تتصل بما قبلها من حيث أن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط، فقيل لهم: كيف تكونون كذلك مع أن معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا، وأما من حمله على المسجد الحرام وسائر المساجد قال: جرى ذكر مشركي العرب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمهم، فمرة وجه الذم إلى اليهود والنصارى ومرة إلى المشركين.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عموم فمنهم من قال: المراد به كل المساجد، ومنهم من حمله على ما ذكرناه من المسجد الحرام وغيره من مساجد مكة، وقالوا: قد كان لأبي بكر رضي الله عنه مسجد بمكة يدعو الله فيه، فخربوه قبل الهجرة، ومنهم من حمله على المسجد الحرام فقط وهو قول أبي مسلم حيث فسر المنع بصد الرسول عن المسجد الحرام عام الحديبية، فإن قيل: كيف يجوز حمل لفظ المساجد على مسجد واحد؟ قلنا: فيه وجوه. أحدها: هذا كمن يقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين. وثانيها: أن المسجد موضع السجود فالمسجد الحرام لا يكون في الحقيقة مسجداً واحداً بل مساجد.

المسألة الرابعة: السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين. أحدهما: منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً. والثاني: بالهدم والتخريب وليس لأحد أن يقول:كيف يصح أن يتأول على بيت الله الحرام ولم يظهر

فيه التخريب لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه يكون تخريباً له، وقيل: إن أبا بكر رضي الله عنه كان له موضع صلاة فخربته قريش لما هاجر.

المسألة الخامسة: ظاهر الآية يقتضي أن هذا الفعل أعظم أنواع الظلم وفيه إشكال لأن الشرك ظلم على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣ مع أن الشرك أعظم من هذا الفعل، وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل، والجواب عنه:أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه.

أما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ فاعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر الكلام أن الذين آمنوا وسعوا في تخريب المسجد هم الذين يحرم عليهم دخوله إلا خائفين، وأما من يجعله عاماً في الكل فذكروا في تفسير هذا الخوف وجوهاً. أحدها: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلاّ خائفين على حال الهيبة وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليهم ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق والواجب إلاّ ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وثانيها: أن هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلاّ خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل أن لم يسلم، وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام، ونادى فيهم عام حج أبو بكر رضي الله عنه: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، وأمر النبي (عليه الصلاة والسلام) بإخراج اليهود من جزيرة العرب، فحج من العام الثاني ظاهراً على المساجد لا يجترىء أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام، وهذا هو تفسير أبي مسلم في حمل المنع من المساجد على صدهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المسجد الحرام عام الحديبية ويحمل هذا الخوف على ظهور أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغلبته لهم بحيث يصيرون خائفين منه ومن أمته. وثالثها: أن يحمل هذا الخوف على ما يلحقهم من الصغار والذل بالجزية والإذلال. ورابعها: أنه يحرم

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾

عليهم دخول المسجد الحرام إلاّ في أمر يتضمن الخوف نحو أن يدخلوا للمخاصمة والمحاكمة والمحاجة، لأن كل ذلك يتضمن الخوف والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾التوبة: ١٧.

وخامسها: قال قتادة والسدي: قوله: ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ بمعنى أن النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلاّ خائفين، ولا يوجد فيه نصراني إلاّ أوجع ضرباً وهذا التأويل مردود، لأن بيت المقدس بقي أكثر من مائة سنة في أيدي النصارى بحيث لم يتمكن أحد من المسلمين من الدخول فيه إلاّ خائفاً، إلى أن استخلصه الملك صلاح الدين في زماننا.

وسادسها: أن قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وإن كان لفظه لفظ الخبر لكن المراد منه النهي عن تمكينهم من الدخول، والتخلية بينهم وبينه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾الأحزاب: ٥٣.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فقد اختلفوا في الخزي، فقال بعضهم: ما يلحقهم من الذل بمنعهم من المساجد، وقال آخرون بالجزية في حق أهل الذمة وبالقتل في حق أهل الحرب، واعلم أن كل ذلك محتمل فإن الخزي لا يكون إلاّ ما يجري مجرى العقوبة من الهوان والإذلال فكل ما هذه صفته يدخل تحته وذلك ردع من الله تعالى عن ثباتهم على الكفر لأن الخزي الحاضر يصرف عن التمسك بما يوجبه ويقتضيه، وأما العذاب العظيم فقد وصفه الله تعالى بما جرى مجرى النهاية في المبالغة، لأن الذين قدم ذكرهم وصفهم بأعظم الظلم، فبين أنهم يستحقون العقاب العظيم.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، الضابط أن الأكثرين زعموا أنها إنما نزلت في أمر يختص بالصلاة ومنهم من زعم أنها إنما نزلت في أمر لا يتعلق

بالصلاة، أما القول الأول فهو أقوى لوجهين، أحدها: أنه هو المروي عن كافة الصحابة والتابعين وقولهم حجة. وثانيهما: أن ظاهر قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ يفيد التوجه إلى القبلة في الصلاة، ولهذا لا يعقل من قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾البقرة: ١٤٤ إلاّ هذا المعنى إذا ثبت هذا فنقول: القائلون بهذا القول اختلفوا على وجوه:

أحدها: أنه تعالى أراد به تحويل المؤمنين عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة، فبين تعالى أن المشرق والمغرب وجميع الجهات والأطراف كلها مملوكة له سبحانه ومخلوقة له، فأينما أمركم الله باستقباله فهو القبلة، لأن القبلة ليست قبلة لذاتها، بل لأن الله تعالى جعلها قبلة، فإن جعل الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لأنه تعالى يدبر عباده كيف يريد وهو واسع عليم بمصالحهم فكأنه تعالى ذكر ذلك بياناً لجواز نسخ القبلة من جانب إلى جانب آخر، فيصير ذلك مقدمة لما كان يريد تعالى من نسخ القبلة. وثانيها: أنه لما حولت القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك فنزلت الآية رداً عليهم وهو قول ابن عباس وهو نظير قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾البقرة: ١٤٢. وثالثها: قول أبي مسلم وهو أن اليهود والنصارى كل واحد منهم قال: إن الجنة له لا لغيره، فرد الله عليهم بهذه الآية لأن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لأنهم اعتقدوا أن الله تعالى صعد السماء من الصخرة والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى (عليه السلام) إنما ولد هناك على ما حكى الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾مريم: ١٦ فكل واحد من هذين الفريقين وصف معبوده بالحلول في الأماكن ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق، فكيف تخلص لهم الجنة وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق. ورابعها: قال بعضهم: إن الله تعالى نسخ بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بهذه الآية، فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في الصلاة إلاّ أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يختار التوجه إلى بيت المقدس مع أنه كان له أن يتوجه حيث شاء، ثم أنه تعالى نسخ ذلك بتعيين الكعبة، وهو قول قتادة وابن زيد. وخامسها: أن المراد بالآية من هو مشاهد للكعبة فإن له أن يستقبلها

من أي جهة شاء وأراد. وسادسها: ما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزاة في ليلة سوداء مظلمة فلم نعرف القبلة فجعل كل رجل منا مسجده حجارة موضوعة بين يديه، ثم صلينا فلما أصبحنا إذا نحن على غير القبلة فذكرنا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى هذه الآية وهذا الحديث يدل على أنهم كانوا قد نقلوا حينئذ إلى الكعبة لأن القتال فرض بعد الهجرة بعد نسخ قبلة بيت المقدس. وسابعها: أن الآية نزلت في المسافر يصلي النوافل حيث تتوجه به راحلته. وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه قال: إنما نزلت هذه الآية في الرجل يصلي إلى حيث توجهت به راحلته في السفر. وكان (عليه السلام) إذا رجع من مكة صلى على راحلته تطوعاً يوميء برأسه نحو المدينة، فمعنى الآية: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ وجوهكم لنوافلكم في أسفاركم: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ فقد صادفتم المطلوب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ ﴾ الفضل غني، فمن سعة فضله وغناه رخص لكم في ذلك لأنه لو كلفكم استقبال القبلة في مثل هذه الحال لزم أحد الضررين، إما ترك النوافل، وإما النزول عن الراحلة والتخلف عن الرفقة بخلاف الفرائض، فإنها صلوات معدودة محصورة فتكليف النزول عن الراحلة عند أدائها واستقبال القبلة فيها لا يفضي إلى الحرج بخلاف النوافل، فإنها غير محصورة، فتكليف الاستقبال يفضي إلى الحرج.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

اعلم أن هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين، واعلم أن الظاهر قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ أن يكون راجعاً إلى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾، وقد ذكرنا أن منهم من تأوله على النصارى، ومنهم من تأوله على مشركي العرب، ونحن قد تأولناه على اليهود وكل هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو

العرب قالوا: الملائكة بنات الله فلا جرم صحت هذه الحكاية على جميع التقديرات، قال ابن عباس رضي الله عنهما:أنها نزلت في كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا فإنهم جعلوا عزيراً ابن الله، أما قوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ فهو كلمة تنزيه ينزه بها نفسه عما قالوه، كما قال تعالى في موضع آخر:﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾النساء: ١٧١فمرة أظهره، ومرة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه، واحتج على هذا التنزيه بقوله:﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه.الأول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولداً، وهذا البرهان إنما استفدناه من قوله:﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع.الثاني: أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو محدثاً، فإن كان أزلياً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له. والثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركباً ومحدثاً وذلك محال، فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة.الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً، واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ مريم: ٣٤ - ٣٥ ، وقال أيضاً في آخر هذه السورة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ

جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾مريم: ٨٨ - ٩٣، فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكاً لما في السموات والأرض، وفي سورة مريم بكونه مالكاً لمن في السموات والأرض على ما قال:﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾مريم: ٩٣، قلنا: قوله تعالى في هذه السورة:﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أتم، لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء، وأما قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾الروم: ٢٦ ففيه:

المسألة الأولى: القنوت: أصله الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه: الطاعة، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وطول القيام، كقوله (عليه السلام) لما سئل: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت» وبمعنى السكوت، كما قال زيد ابن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾البقرة: ٢٣٨ ، فأمسكنا عن الكلام، ويكون بمعنى الدوام،

المسألة الثانية: لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقاءها به سبحانه ولأجله وهذا يقتضي أن العالم حال بقائه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا حال حدوثه ولا حال بقائه.

أما قوله تعالى:﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: البديع والمبدع بمعنى واحد. قال القفال: وهو مثل أليم بمعنى مؤلم وحكيم بمعنى محكم، غير أن في بديع مبالغة للعدول فيه وأنه يدل على استحقاق الصفة في غير حال الفعل على تقدير أن من شأنه الإبداع فهو في ذلك بمنزلة: سامع وسميع وقد يجيء بديع بمعنى مبدع، والإبداع الإنشاء ونقيض الإبداع الاختراع على مثال ولهذا السبب فإن الناس يسمون من قال أو عمل ما لم يكن قبله مبتدعاً.

المسألة الثانية: اعلم أن هذا من تمام الكلام الأول، لأنه تعالى قال:﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فبين بذلك كونه مالكاً لما في السموات والأرض ثم بين بعده أنه المالك أيضاً للسموات والأرض، ثم أنه تعالى بين أنه كيف يبدع الشيء فقال:﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

. الطباطبائي:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، شروع في إلحاق النصارى باليهود تصريحاً وسوق الكلام في بيان جرائمهم معاً.

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، هذه كرة ثالثة عليهم في بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم ولا كرامة لأحد على الله إلاّ بحقيقة الإيمان والعبودية، أولها قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ البقرة: ٦٢ وثانيتها، قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ البقرة: ٨١ ، وثالثتها، هذه الآية ويستفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه إلى الله وتفسير الإحسان بالعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، أي وهم يعملون بما أوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك والكتاب يُبيّن لهم الحق والدليل على ذلك قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ فالمراد بالذين لا يعلمون غير أهل الكتاب من الكفار ومشركي العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء أو إن أهل الكتاب ليسوا على شيء.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ ﴾، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكة قبل الهجرة فإن هذه الآيات نزلت في أوائل ورود رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾، يدل على مضي الواقعة وانقضائها لمكان قوله كان، فينطبق على كفار قريش وفعالهم بمكة كما ورد

به النقل أن المانعين كفار، مكة كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والمساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، المشرق والمغرب وكل جهة من الجهات حيث كانت فهي لله بحقيقة الملك التي لا تقبل التبدل والانتقال، لا كالملك الذي بيننا معاشر أهل الاجتماع، وحيث أن ملكه تعالى مستقر على ذات الشيء محيط بنفسه وأثره، لا كملكنا المستقر على أثر الأشياء ومنافعها، لا على ذاتها، والملك لا يقوم من جهة أنه ملك إلاّ بمالكه فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها وهو معها، فالمتوجه إلى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى.

ولما كان المشرق والمغرب جهتين إضافيتين شملتا ساير الجهات تقريباً إذ لا يبقى خارجاً منهما إلاّ نقطتا الجنوب والشمال الحقيقتان ولذلك لم يقيد إطلاق قوله فأينما، بهما بأن يقال: أينما تولوا منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، بمنزلة قولنا: ولله الجهات جميعاً وإنما اخذ بهما لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس وغروبها وسائر الأجرام العلوية المنيرة.

قوله تعالى: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، فيه وضع علة الحكم في الجزاء موضع الجزاء، والتقدير ـ والله أعلم ـ فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك ويدل على هذا التقدير تعليل الحكم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي إن الله واسع الملك والإحاطة عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسماني لا يتوجه إليه إلاّ إذا كان في جهة خاصة، ولا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلاّ من جهة خاصة كقدامه فقط، فالتوجه إلى كل جهة توجه إلى الله، معلوم له سبحانه.

واعلم أن هذا توسعة في القبلة من حيث الجهة لا من حيث المكان، والدليل عليه قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾.

وفي التهذيب عن محمد بن الحصين قال: كتب إلى عبد صالح الرجل يصلي

في يوم غيم في فلاة من الأرض ولا يعرف القبلة فيصلى حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس فإذا هو صلى لغير القبلة يعتد بصلوته أم يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت، أو لم يعلم أن الله يقول: ـ وقوله الحق ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾. وفي تفسير العيّاشي عن الباقر (عليه السلام): في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾إلخ، قال (عليه السلام): أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وصلى رسول الله إيماءً على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر وحين رجع من مكة، وجعل الكعبة خلف ظهره.

أقول: وروى العيّاشي أيضاً قريباً من ذلك عن زرارة عن الصادق (عليه السلام)، وكذا القمي والشيخ عن أبي الحسن (عليه السلام)، وكذا الصدوق عن الصادق (عليه السلام).

وأعلم إنك إذا تصفحت أخبار أئمة أهل البيت حق التصفح، في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد من القرآن وجدتها كثيراً ما تستفيد من العام حكماً، ومن الخاص أعني العام مع المخصص حكماً آخر، فمن العام مثلاً الاستحباب كما هو الغالب ومن الخاص الوجوب، وكذلك الحال في الكراهة والحرمة، وعلى هذا القياس، وهذا أحد أصول مفاتيح التفسير في الأخبار المنقولة عنهم، وعليه مدار جم غفير من أحاديثهم، ومن هنا يمكنك أن تستخرج منها في المعارف القرآنية قاعدتين:

إحديهما: أن كل جملة وحدها، وهي مع كل قيد من قيودها تحكي عن حقيقة ثابتة من الحقائق أو حكم ثابت من الاحكام كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾الأنعام: ٩١ ، ففيه معان أربع: الأول: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، والثاني: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾، والثالث: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ ﴾، والرابع: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾، واعتبر نظير ذلك في كل ما يمكن.

والثانية: ان القصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان إلى مرجع واحد، وهذان سران تحتهما أسرار والله الهادي.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعطي السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقالة هم اليهود والنصارى: إذ قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعني قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ أول ما قالوها تشريفاً لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحبائه ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين فأضرب عن قولهم بقوله:﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلخ، ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه، فإن اتخاذ الولد هو أن يجزي موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصيره بتربية تدريجية فرداً من نوعه مماثلاً لنفسه، وهو سبحانه منزه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والارض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عند ذلة وجودية، فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له مماثلاً نوعياً بالنسبه إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقاً سابقاً، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب، ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج إلى تربية وتدريج، فقوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ برهان تام، وقوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ برهان آخر تام، هذا. ويستفاد من الآيتين:

أولاً: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والارض.

وثانياً: أن فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، ان كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾يس: ٨٢، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ

﴿بِٱلۡبَصَرِ﴾القمر: ٥٠، وتفصيل القول في هذه الحقيقة القرآنية، سيأتي إن شاء الله في ذيل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾يس: ٨٢، فانتظر.

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلاّ مضافاً وهو مفعول مطلق لفعل محذوف أي سبحته تسبيحاً، فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الضمير المفعول وأقيم مقامه، وفي الكلمة تأديب إلهي بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحة قدسة تعالى وتقدس.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، القنوت العبادة والتذلل.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، بداعة الشيء كونه لا يماثل غيره مما يعرف ويؤنس به.

قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾، تفريع على قول﴿كُن﴾ وليس في مورد الجزاء حتى يجزم.

في الكافي والبصائر، عن سدير الصيرفي قال: سمعت عمران بن أعين يسأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فقال أبو جعفر (عليه السلام): إن الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السموات والأرضين ولم يكن قبلهن سموات ولا أرضون أما تسمع لقوله: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾؟

اقول: وفي الرواية إستفادة أُخرى لطيفة، وهي أن المراد أن لا مراد بالماء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ غير المصداق الذي عندنا من الماء بدليل ان الخلقة مستوية على البداعة وكانت السلطنة الإلهية قبل خلق هذه السموات والأرض مستقرة مستوية على الماء فهو غير الماء وسيجيء تتمة الكلام في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾هود: ٧.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

وأيضاً ولله الحمد أجمع المفسرون بشكل من الأشكال على المعنى العام لهذه الآيات الكريمات ولو جاءت عباراتهم مختلفة بالشكل لكن المضمون جاء عند الجميع موحداً، إلا أن هناك نكتتان وردتا في سياق التفسير عند بعض المفسرين، الأولى: أشار كل من الطبري والقرطبي والطبرسي إلى أن معنى «الخزي» في الدنيا للمشركين واليهود والنصارى يتمثل في ظهور الإمام المهدي (ع) وخاصة عند فتحه للقسطنطينية وغيرها.

والثانية: قول الفخر الرازي: إن الخلاف بين اليهود والنصارى حول صحة وسلامة معتقد كل من الفريقين تعداهم ووصل نفس الأمر إلى الأمة الإسلامية رغم تلاوتهم للقرآن الكريم وما فيه من أخبار تتحدث عن خطورة وحرمة هذا الأمر.

لذا نستغل هذه المناسبة لإعادة التأكيد بأننا نهدف من وراء وضع هذا الكتاب إلى محاولة رأب الصدع بين المسلمين والله المسدد والمعين.